ليلى العثمان

حكاية صفيّة

روايه

دار الآداب ـ بيروت

حكاية صفيّة

ليلى العثمان / روائيّة كويتيّة
الطبعة الأولى عام 2013
ISBN 978-9953-89-260-3
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana.adab@hotmail.com
Website: www.daraladab.com
Facebook: Dar Al Adab

إهداء:

إلى التي وعدتها قبل موتها، أن أروي حكايتها ذات يوم.

* * *

(من جناح الموت الرابع
حاولتْ أن تقلد العصافير
في رقصتها الأخيرة
فخانها الهواء)[1]

* * *

(١) الشاعر دخيل الخليفة. من ديوانه: (يد مقطوعة. تطرق الباب).

حـروق الـتاوة

يومها كان عمري خمس سنوات. . مُقرفصًا بجانب أمّي الجالسة أمام التاوة تخبز الرقاق، رغم حرارة النار كنتُ ألتصق بها وأتلذّذ بطعم الخبزة التي تدهنها لي بالسمن (العداني) وترشّها بالسكّر. وكعادتها تظلّ تُسلّيني بحكاياتها وغناويها الحلوة، كنّا سعيدَيْن لكنّ سعادتنا سرعان ما تعكّرت حين اندفعت صفية من الدهليز بثوبها الكركميّ المشجّر لاهثة وقد ابتلع الهلع لون وجهها وأبي يركض بإثرها مسعورًا بصراخه وزبد فمه المتطاير.

ارتمتْ صفيّة قرب أمّي لتحتمي بها لكن أبي انتزعها بعنف وهي تصرخ:

ـ يُمّه الله يخليكي فكّيني منه.

لا حول ولا قوّة لأمّي غير الرجاء:

ـ الله يهديك يا بو هلال أترك البنت.

لكنّه تمكّن منها. حملها وهي تعافر بين يديه، وبقلب انقشعت منه الرحمة ألصق قدميها على التاوة المُستعرة بنارها حتى فاحت

رائحة شوائهما وصراخ أختي يستعر.

لن أنسى فظاعة ذلك المشهد، أذكر كيف التصقتُ بالجدار مرتعدًا أشهق بدموع قلبي المرعوب المُتمزّق شفقة عليها.

ألقى بها على الأرض، سارعت أمّي إليها وصوتها الخفيض يترقرق بدموعها:

ـ يا ويلك من ربّ العالمين.

لعلع صوت أبي المكروب:

ـ كم مرّة قلت لكِ لا تتركيها تخرج إلى الشارع؟

أمّي تحاول أن تهدّئه:

ـ خلاص.. ما يصير خاطركِ إلّا طيّب.

ردّ أبي وهو يُعدّل وضع غترته:

ـ لا طابت حالك أنت وبنتك، والله لو خرجتْ سأقطع رجلها عرقها.

احتضنت أمّي صفيّة وصوت أبي يُدينها:

ـ كلّ الخراب منكِ.. الولد في حضنك والبنت (هايتة)[1].

برّرت أمّي:

ـ أنا طلبت منها أن تكنس الدهليز. ما أدري أنّها خرجت.

(١) هايته: فلتانة.

سخر أبي منها:

ـ تكنس الدهليز! كانت في الشارع تلعب مع الصبيان وتُقوقئ مثل الدجاجة.

قبل أن يلوي خارجًا اقترب منّي وعصر أذني:

ـ وانتَ يا (الدثوي)[1]؟ ليش ما تحطّ بالك على أختك؟

لم يعجب أمّي نفيره بوجهي:

ـ هذا جاهل ماذا سيفعل؟

زاد غضب أبي:

ـ اليوم جاهل.. باكر يكبر، من الآن لازم يتعوّد أن يكون رجلاً.

خرج... تركنا غاطسين في وجعنا.

* * *

هرعت أمّي إلى برمة الماء، عبّأت طشتًا وأسقطت قَدَمَيْ أختي وهي تنوح وتزفر:

ـ حسبيَ الله عليكْ ونعم الوكيل.

ثم انفلتت بغضبها إلى صفيّة:

ـ تستاهلين يا العنيدة كم مرّة عاقبك ولا تتوبين و...

لم تكمل.. شرقتْ بدمعها، سحبت ملفعها وشقّته بأسنانها

(١) الدثوي: الأهبل الذي لا يتحمّل مسؤوليّة.

فتطاير منه رذاذ الطحين. جفّفت قدميْ أختي. أمسكت بالحوّيتة التي تدهن بها التاوة ومرّرتها على قدميها ثم لفّتهما بالملفع وحملتها إلى غرفتنا وأنا أتبعها، وضعتها فوق الفراش وهي تؤنّبها:

ـ شُفتِ عمايلك؟ حبستِ روحك بهذه الفعلة، شوفي عاد متى تطيبين!

عادت أمّي لتكمل خبيزها، رأيتها تكرف جلد أختي الذي ما زال يتكرمش على سطح التاوة وتفوح رائحته. ازداد ذرف دموعي، حقدتُ على أبي الذي بطش بأختي وبحرقة قلبي:

ـ إن شالله ينحرق في نار جهنّم.

تركتُ أمّي بأساها وذهبت إلى صفيّة. ارتميت بقربها، ألقيتُ برأسي في حضنها أبكي وأتوسّلها:

ـ الله يخليكي صفيّة لا تطلعين الشارع.

فأقأت بدموعها:

ـ أنتَ ما تشوف؟ كيف أطلع ورجلي محروقة؟

ـ أقصد بعد أن تطيبي لا تطلعي.

هزّت رأسها:

ـ إن شالله.. خلاص.

تلك الليلة خمدت النار في موقدها، لكنّها لم تخمد في قدمَيْ

أختي ولا في قلبي وقلب أمّي.

* * *

لم تكن المرّة الأولى التي يعاقب بها صفيّة.. كم مرّة رفع قدميها وجحّشهما بالعصا حتى تورّمتا، كنتُ في كلّ مرّة أحسب أنّ صفيّة ستتوب. لكنّها ما إن تبرأ جراحها حتى تلبّي نداء الشارع، تشدّني من يدي لأخرج معها فأخاف:

ـ وإذا شافك أبي؟

ـ لن يشوفني، أنت تقف عند رأس الشارع وإذا شفته تعال بسرعة ونبّهني لأدخل.

كنتُ أحبّ صفيّة كثيرًا، كانت تقوم مقام أمّي المشغولة دائمًا، هي التي تُحمّمني وتطعمني وكثيرًا ما تلاعبني (الكوكسه واحديّه بديّه)[1]. (تعكّني) على ظهرها وتدور بي في الحوش حتى ندوخ. وتمنحني نصيبها من الحلويات. وفي الليل تحازيني حتى أنام. كانت حنونة، إن بكيتُ بكت وهي تجفّف دموعي. كنت أحبّ أن تخرج لتلعب وترتاح من شغل البيت الذي تكلّفها به أمّي، كثيرًا ما رأيتها مُهوّشة الشعر تكنس الحوش وتغسل المواعين، كنت أخرج معها رغم خوفي عليها، لا لألعب بل لأكون لها الحارس المُتيقّظ لأحميها من أبي.

كنتُ أرى كلّ البنات يلعبن في الشارع، فلماذا يمنع أبي صفيّة.

(١) (الكوكسة.. أحديه بديه): ألعاب شعبيّة.

سألت أمّي فقالت:

ـ أختك غير كلّ البنات (بازع)[1] ولا تلعب إلّا مع الصبيان.

رغم طفولتي كنتُ أستغرب، ما الذي يجعلها تحبّ اللعب مع الصبيان.

* * *

(٢) بازع: وقحة.

العائلة

تأخّر حمل ثاجبة.. ثم جاءت البنت.. وبعد انتظار ثلاث سنوات جاء الولد. كان الحمل مُتعبًا والولادة صعبة، نزفت خلالها نزفًا شديدًا ثم أقفر رحمها. اكتفى الزوج بالولد والبنت لكنّ الزوجة ظلّت تلحّ عليه:

ـ إن كنتَ ترغب في المزيد من الأولاد فمن حقّك أن تتزوّج.

لم يُبدِ رغبة في الزواج ولا في المزيد من الأولاد. لكن لسانها لم يجفّ عن الإلحاح إلّا حين هدّدها:

ـ إذا تزوّجتُ أطلّقك، لا أقدر على حُرمتين.

أسكتها التهديد واطمأنّت أنّها ستكون الزوجة الوحيدة.

في أحد الأحياء الفقيرة في شرق عاشت العائلة الصغيرة. الأب (عيسى بن نايف)، رجل نحيل طويل القامة، حنطيّ اللون له عينان مستديرتان غير حنونتين، شفتان غليظتان ترتاحان تحت أنف منفرج. يعمل قفّاصًا في أحد الأسواق الضيّقة، محلّ صغير ورثه من أبيه الذي كان حريصًا أن يصحبه إلى المحلّ ليتعلّم المهنة

ويرثها. لم يحرمه الذهاب إلى المُلّا ليحفظ القرآن ويختمه. كان يُشجّعه ويعطيه ربع (روبيّة)[1] فيسرع إلى الدكّان ليشتري الحلوى والنقل ويلعب الكرة مع أقرانه من الصبيان. مات أبوه وهو في السادسة عشرة من عمره. كان قد أتقن الصّنعة وتولّع بها فحلّ مكان أبيه وتفانى في عمله الذي يدرّ عليه رزقًا يُرضيه.

يجلس على حصيرته طوال النهار يعمل بنشاط. يشبك جريد النخل بثقبه وإدخال أطرافه بتلك الثقوب. صار له زبائن كثر لدقّة صناعته وجمال نقوشها وكَثُرَتْ طلباتهم. هذا يريد ركوكًا للتمر، وهذا يريد قفصًا للطيور، وآخر يشتري المكانس ويوصيه على سفرة كبيرة للأكل، وكثيرون يطلبون المهاف[2] أو الأطباق الصغيرة المزخرفة، والبعض يأتي ليتسلّم أغراضه ويدفع ثمنها.

* * *

الأمّ (ثاجبة) بنت رشدان الحوّاي جميلة ذات عينين واسعتين، وأنف كسلّة السيف، وخدّين مُمتلئين على الأيمن ندبتان صغيرتان من أثر الجدري. خطبتها له أمّه، أحبّ أوصافها لكنّه لم يحبّ الاسم (ثاجبة) فكان يناديها (ناجية) وحين يغضب منها لأيّ سبب يقفز اسمها الحقيقي على لسانه وكأنّه يعاقبها به.

حين مرّت شهور ولم تحمل، ظنّت أمّه أنّها عاقر. أشفقت على ولدها وعرضت عليه:

ـ أزوّجك غيرها.

---

١) الروبيّة: عملة الكويت قبل الاستقلال وفي الأصل هي هنديّة.
٢) المهاف: المراوح اليدويّة وتصنع من الخوص.

لكنّه كان مرتاحًا بالعيش معها فرفض:

ـ هذه قسمتي ونصيبي.

بعد سنة وشهرين جاءته بشارة حملها. فرح وتمنّى ولدًا.. لكنّ البنت خيّبت أمله. سألته ثاجبة:

ـ ماذا تريد أن تُسمّيها؟

أجاب وهو مهموم:

ـ لو كان ولدًا لسمّيته.. سمّيها أنت.

* * *

كان وجه الطفلة جميلاً صافيًا فسمّتها صفيّة. ورثت الطفلة جمال أمّها. سمراء، شعر أسود كثيف، عينان لوزيّتان، البؤبؤان فاحمان، والرموش طويلة ملتوية، شفتان مكتنزتان تبرز الشفة العليا فتبدو وكأنّها تشهق بعلامة سؤال. لكنّها فاقت جمال الأمّ بجاذبيّة ساحرة لكلّ عين تراها. حين تأمّلها أبوها وهي في مهدها انبهر وبدل أن يهشّ ويبشّ ويسمّي عليها بالرحمٰن ويُؤذّن بأذنها كما يفعلون للمواليد، أخذ يستغفر ربّه ويتعوّذ من الشيطان.

لا يدري ما الذي قرص قلبه، مسح على وجهها وهمس في سرّه:

(اللهمّ استرنا من هذا الجمال، يبدو أنّها ستشقينا به).

مضت ثلاث سنوات قبل أن يهبهما الله الولد، أشرق في قلب الأب كالبدر فسمّاه هلال. جاء بشعر أجعد وعينين ضيّقتين، وفم

٠٠١٢٨٩

صغير بشفتين رقيقتين وأنف مستقيم.

بالغت الأمّ في تدليل صفيّة.. كانت تفرح بشيطنتها وحركاتها العجيبة. ولا ترضى أن يردعها أبوها أو يضربها ولو بعود أخضر. صارت عاتية بعنادها تفعل كلّ ما يخطر ببالها من مشاغبات تثير دهشة أمّها وتقلق أباها الذي باللين والشدّة يحاول تشذيب طباعها لكنّه يفشل أمام قلب الأمّ الأشفّ من قلب طفل. كانت تدافع عنها بحجّة أنّها ما تزال طفلة.

كان الحال مستورًا والسمعة طيّبة، لكنّ شيئًا كالسوسة بدأ ينخر في أساسات حياتهم الهادئة ويفسدها.

* * *

هي صفيّة المدلّلة... ما إن بلغت الخامسة حتى بدأت بوادر نبوءة الأب تظهر عليها، ليس بجمالها الطاغي وحده ولا بالتماعة البرق الغريب في عينيها بل كانت آفة الجسد الذي منذ أن خلقه الله بثّ فيه بركانًا من النار. فمنذ ولادتها لاحظت أمّها أنّ (عصفور عانتها الصغير ناتئ كالمنقار) وبرق عينيها كعينيّ قطّة متوحّشة.

كانت تكبر.. والمنقار يكبر.. والبرق يُنذر بعاصفة. البنت لا تنام إلّا وكفّها لابدة بين فخذيها، وفي النهارات يُصيبها شيء كالحكاك فتظلّ كفّها تهرش في العصفور وتبدو مُلتذّة بحكاكها.

أفصحت الأمّ لأبيها:

ـ البنت فيها شيء غريب دائمًا تحُك.

بلا مبالاة قال:

ـ يمكن فيها دود، اسقيها خروع ينزل مع الخروج.

ظلّت تسقيها الخروع. . لكنّ الدود لم يكن في أحشاء البطن، كان يسكن رأس المنقار وكأنّه ينثر عليه ذرّات من الفلفل، فيزداد حكاكها.

فاجأتها أمّها أكثر من مرّة وهي بلا ساتر تحكُّ منقارها بملعقة أو خشبة، فتكتفي بضربها على كفّيها وهي تُنبّهها:

ـ هذا المكان لا يلعبون به.

تسأل:

ـ ليش؟

لم تكن الأمّ قادرة أن توضح لها قيمة ذلك المكان وهيبته. فقد اعتادت كلّ البنات أن يتشرّبن الخوف والحرص عليه من أمّهاتهنّ، (هو الشرف) الذي بدونه توصم البنت وتعنّس أو تُقتل إن هي فرّطت به. صعب أن تشرح للطفلة لكنّ التنبيه الدائم واجب عليها. وفي كلّ مرّة تظنّ أنّها تابت لكنّها لا تتوب.

* * *

صفيّة والشارع

أغرمتْ صفيّة بالشارع، تخرج إليه متى سنحت لها الفرصة، تناديها البنات لتلعب معهنّ لكنّها تندفع إلى دائرة الصبيان تلعب ألعابهم وتتعافر معهم مُلتذّة بسقوطهم فوقها وبحركات أيديهم الوقحة.

سبّبت صفيّة المشاكل بين أمّها وأبيها الذي كان يعترض على خروجها ويُنبّه أمّها التي تمتثل لأمره وتمنعها، لكنّ صفيّة بعنادها لا تلبّي، تغتاظ وتصرخ وتمتنع عن الأكل ممّا يجعل أمّها ترقّ لحالها وتسمح لها أن تخرج وهي تُنبّهها:

ـ ادخلي قبل أن يعود أبوك، لا نريد وجع راس.

ذات يوم كان الصداع يشتدّ على أمّها وبكاء هلال يزعجها ويضاعف وجعها فوجدت صفيّة حجّة مُناسبة لتخرج:

ـ خلّيني أطلع به إلى الشارع لأريحك منه.

وافقت الأمّ من فورها لكنّها أوصتها:

ـ اجلسي على دكّة الباب، خلّيه في حضنك ولا تتركيه لتلعبي.

خرجت به سعيدة، تعرف أنّه سيُقيّد حرّيّتها لكنّها تعمل بوصيّة أمّها. تجلس على الدكّة وهو في حضنها ولا تبالي حين يرتفع ثوبها ويُطلّ ساترها من بين ساقيها المفتوحتين. تنجذب إليها عيون المارّة شرسَة النظرات. ويتحلّق الصبيان حولها. هذا يشدّ جديلتها وذاك يقرص خدّها ويجرؤ أحدهم أن يدسّ إصبعه فتشعر بمنقار النار يلتهب، وبدل أن تثور كانت تضحك فيجرؤ آخر ليكرّر فعلة الأوّل، ثم يتناوب عليها أكثر من واحد فلا تردعهم بينما أخوها يزعق خائفًا من الأصوات الصارخة فتلقمه مصّاصته ليسكت.

صودف ذلك اليوم مرور (المُلّا أبو صالح) من أمام بيتهم فاستفزّه منظرها وغلتْ الدماء في عروقه. هشّ الصبيان واقترب منها زاجرًا:

ـ تستّري يا بنت وادخلي بيتكم.

لم تهتمّ بغضبه، نظرت إليه بتحدٍّ وقح ولعلع لسانها:

ـ ما خصّك فيني، أمّي طلبت أن أخرج بأخي.

طرق على جبينها بإصبعيه:

ـ وأمّك طلبت منك أن (تتبلّقي) أمام المارّة؟

ـ مو شغلك.

نفر من وقاحتها وقال مُهدّدًا:

ـ شغلي مع أبوك ليؤدّبك.

ـ روح بس فكّنا من شرّك.

* * *

رغم طول لسانها وزفارته لم يهن عليه أن تتعرّض بنت الرجل الطيّب لسطوة الصبيان، ذهب من فوره إلى محلّ أبيها مُعاتبًا:

ـ يا عيسى.. ألا تخاف على ابنتك؟ ترى صبيان الشارع يحارشون فيها.

خجل وارتبك...

ليست المرّة الأولى التي يسمع فيها هذا التنبيه عن وقاحة ابنته، أغلق محلّه وهرع إلى البيت غاضبًا. كانت لم تزل في جلستها مكشوفة الساقين ترصّ أخاها إلى صدرها والصبيان من حولها يتبارون في معاكستها. شدّها من عنق ثوبها داخلاً بها إلى البيت وهو يرعد بغضبه فالتًا صوته ينادي أمّها:

ـ ثاجبو.

خرجتْ من المطبخ فَزِعَةً، سلّم إليها الصغير وأمسك بصفيّة يهوي على وجهها بالصفعات. ركنت الأمّ طفلها على الحصير وأمسكت بيده ليُكفّ:

ـ يكفي يا عيسى.. ليش طايح في البنت؟

ـ البنت قاعدة في السكّة ومْشرّعة فخوذها.

ـ أنا قلت لها أن تخرج بأخيها لتلاعبه.

اغتاظ أكثر:

ـ والصبيان يحارشون فيها وهي ساكتة. كلّ البلى منكِ.

ـ بعدها جاهل.. باكر تكبر وتفهم.

صرخ حانقًا:

ـ وأنا ما راح أنطر باكر حتى تكبر وتسوّد وجهي.

لتخفّف عنه غضبه:

ـ إن شالله دوم وجهك أبيض.

لم يبتلع ثناءها، هزّ إصبعه مُهدّدًا:

ـ شوفي عاد (علمٍ يوصلكِ ويتعدّاكِ).. البنت ما لها طلعة للسكّة بعد اليوم.

* * *

(كلّما كبرتْ صفيّة سنة صارت أكثر تمرّدًا، أمّي تحتملها وتتستّر على أفعالها. أمّا غضب أبي يكبر فيُعدّ هذا التمرّد تحدّيًا لسلطته وقدرته على شكمها، فضاعف من قسوته وطرائق تعذيبه لها. كنتُ أعجب كيف تحتمل أختي كلّ هذه الصنوف من العذاب الذي يحيق بعظامها، بجلدها، بمنابت شعرها الذي كان أبي ينتزع منها خُصلاً ويُلقيها من يده ساخطًا مُتوعّدًا أنّه سوف يحشّه لتصبح قرعاء وتخجل من اللعب في الشارع. كلّ هذا لم يؤثّر بها ولم يُصلح اعوجاجها).

* * *

ذات ليلة كان في غرفة أبيه يرتع بحضن أمّه، كانا يتجادلان حول سلوك صفيّة. سمع أباه يقول:

ـ سأذبحها إن ظلّت على حالها.

انفلتت الكلمة إلى أذنه واخترقتها إلى الأذن الأخرى كرصاصة من نار وشبّت في جسده حتى كاد يشمّ رائحة شوائه.

ارتعش صوت أمّه:

ـ واللي يعافيك يا عيسى هذي بنتك حشاشة جوفك.

ـ الله يلعنها ويلعن الساعة التي جاءت فيها إلى الدنيا.

قفز من الحضن وركض إلى أخته المُتكوّمة على الأرض في غرفتها بعد أن هرسها أبوه هرسًا لا يحتمله حيوان. كانت كالمُغمى عليها لا شيء سوى أنين يخرج من صدرها كالحفيف. دنا منها وهو يبكي:

ـ صفيّة.. يقول أبي أنّه سيذبحكِ.

اهتزّ جسدها. فرْفرتْ روحها وصرخت صرخة هزّت أرجاء الغرفة:

ـ يذبحني! يعني أموت؟

خاف عليها:

ـ أنا أحبّك يا صفيّة ولا أريد أن تموتي، بس لازم تتوبين.

وهما في وصلة نحيبهما دخلت أمّه وأكبّت على جسد أخته المُضعضع من الضرب تُهمّزه وكلامها خليط من القسوة والحنان:

ـ يا بنتي... لم يعد في جسدكِ عظم سليم من كثرة الضرب والشدخ. ترى أبوك عجز منك واليوم قال إنّه سيذبحكِ.

خائفة أفرطت بالبكاء وتكوّمت في حضن الأمّ المُرتعش.

* * *

خرج إلى الحوش.. نظر إلى غرفة أبيه المُضاءة بسراج واهن، تردّد قبل أن يقترب لكن خوفه على أخته هَمَزَهُ بقوّة فدخل إليه.

كان يستلقي على فراشه.. يبدو عليه التعب، دنا منه حريصًا أن يكون بعيدًا عن مُتناوله، سأله بصوت مرتجف:

ـ يُبَه... ليش ستذبح أختي؟

فوجئ الأب.. نظر إليه بعينين جمريّتين:

ـ أختك ما تسمع الكلام. وإن تركتها على كيفها ستجلب لنا العار وتلك الساعة لازم أغسل العار وأذبحها.

لم يكن بعد يعرف ما هو العار، ولا كيف يغسله ذبحُ أخته، لكنْ أبوه بالتأكيد يعرف.

أصابه الذعر، فرّ من الغرفة يتراكم في قلبه الكره ويتمنّى لو يموت أبوه قبل أن يذبحها.

* * *

لم تكن صفيّة تخاف. ولم يسلم من أفعالها أحد. كانت تُطارد أغنام الشاوي وتفرّقها ولا تهاب عصاه، تلحق بالنساء الحاملات بقشهنّ وتسحبها فتتبعثر الثياب. وتفرّ هاربة وهي تكعكع بالضحك.

يلملمن أغراضهنّ ويلحقن بها إلى البيت يشكونها لأمّها التي تخجل منهنّ وتُبدي أسفها:

ـ سامحوني... والله هالبنت مشيّبة راسي بوكاحتها.

تُطيّب خواطرهنّ. بعضهنّ يسامحنها وبعض آخر من النساء السليطات يُغادرن غير مُكتفيات بالاعتذار مُهدّدات أنّهنّ سيضربنها حتى تتوب.

حتى صبّاب الماء ناله منها نصيب.

* * *

صبّاب الماء

سمعت ضربات الحجر على الباب وصوته:

ـ شطّ.. شطّ[1].

فتحت.. دخل يحمل قربته وصوته:

ـ دربْ.. دربْ.

زجرته:

ـ بس لا تصرّخ، ما في أحد في الحوش.. أدخل.

قبل أن تُغلق الباب أطلّت برأسها وصفّرت للصبيان، وحين تراكضوا إليها مدّت لهم لسانها وسدّت الباب وهي تضحك.

تبعت صبّاب الماء. رفعت غطاء (البرمة)[2]، أدلى عنق القربة وأرخى أصابعه التي تضغط عليها فتدفّق الماء حتى امتلأت. فتحت له غطاء (الحِبَّ)[3]. ملأه لكن قليلاً من الماء بقي في القربة. استدار ليخرج لكنّها استوقفته وصرخت به:

---

(١) شطّ: لأنّ الماء يأتي من شطّ العرب.

(٢)، (٣) البرمة والحِبّ: أوانٍ للماء مصنوعة من الفار أشبه بالزير.

ـ هيييه... وين رايح؟ هذا الماء نحن ندفع فلوسه.

حائرًا سألها:

ـ وين أصبّه؟

سحبت طرف ثوبها حتى بداية الفخذ وبنزق أمَرَتْهُ:

ـ صُبْ الباقي على ساقي.

أشاح بوجهه الذي تعفّر بالغضب:

ـ استحي وتستّري، بعدك جاهل وتسوّين هالعمايل يا بنت ال..

لم تزعجها شتيمته، ساقها الذي لم يحرّك ساكنه استفزّها فدلعت له لسانها:

ـ (مالتْ عليك).

حدجها بنظرة تهديد:

ـ سأخبر أباك بوقاحتك.

تصوّرها ستخاف، لكنّها بتحدٍّ كبير قالت:

ـ (إذا في أمّك خير) قل له. وأنا أعرف كيف أخلّيك تندم. سأقول له إنّك تحارشني.

ذهل الرجل. ركض إلى الدهليز وهي تتبعه. شخط بمشعابه خطًّا على الجدار بجانب الخطوط الأخرى:

ـ شوفي.. صاروا ثلاثة دروب.

فتحتْ له الباب:

ـ روح... دربْ اللّي ما يحفظك.

أغلقتْ الباب وقهقهت شامتة به.

* * *

اتّجهتْ إلى المطبخ.. كان الدخان كثيفًا يكاد يحجب جسد أمّها لكنّه لم يُخفت صوتها. سألتها:

ـ مع من كنتِ تهذرين؟

ـ هذا صبّاب الماء، صَبّ وذلف.

ـ عيب يا صفيّة.

ـ يُمّه ترى هذا ما يستحي يحارش فيني.

صرخت أمّها:

ـ انطمّي.. هذا رجّال عاقل، أنتِ التي تحارشين حتى كلاب السكك.

كحّت أمّها مختنقة من الدخان:

ـ أعطيني ماء بسرعة.

كانت تقف عند الباب ساهية وأمّها تكرّر الطلب:

ـ ما تسمعين؟ روحي هاتي ماء.

ركضت إلى البُرمة، ملأت كأس المعدن لكنّها لم تدخل:

ـ يُمّه تعالي خذيه، الدخان يحرق عيني.

قامت أمّها مُتثاقلة وهي تبرطم:

ـ حسبي الله عليك من بنت.

وحين دنت منها ضربت رأسها بأطراف أصابعها.

ـ لا أدري ماذا ستفعلين حين تتزوّجين؟ مصيرك إلى المطبخ والدخان.

غير مبالية ردّت:

ـ هذيك الساعة يصير خير.

أعادت الكأس واتّجهت إلى الدهليز.

نادتها:

ـ وين رايحة؟

ـ يُمّه سألعب مع خديجه، تنتظرني بالدهليز.

مُتذمّرة قالت أمّها:

ـ هذي (الخديجو) مطيورة وقلبي ينغزني منها.

كانت قد أقفتْ ولم تسمع الذي قالته أمّها.

* * *

لم تكن خديجة بالدهليز.. كانت تنتظرها في الخارج عند العتبة لتبدآ وصلات اللعب، لكن صفيّة تترك خديجة تلعب مع البنات (الخبصة، والحجلة، والبرّوي)[1] وتنضمّ إلى الصبيان في لعبة (عماكور). كانت تتعمّد أن تقف في طريق الصبيّ الذي يربطون عينيه ليصيدها ويشدّها إليه وقبل أن يفلتها يقرصها أو يُسرّب لأذنها كلمة فاحشة من تلك الكلمات التي تنفخ ريحًا في جسدها فتركض إلى البيت لتدسّ كفّها فوق المنقار حتى تنطفئ ريحها.

* * *

(١) البروي والخبصة: ألعاب البنات في الماضي.

طقْ الشقيقة

الجوّ حارّ. . . الشمس تفرد أشعّتها، ضجيج الشارع وأجساد الصبيان الفتيّة وبذاءات حركاتهم تثيرها وتسري إلى جسدها. فتحت الباب وهي تتمنّى:

ـ إن شاء الله ما يكون (عوض الأعور) واقفًا.

أمنيتها تبخّرت. . كانت عينا عوض لها بالمرصاد فصرخ بها:

ـ أدخلي يا الوكيحة.

ـ عَمَتْ عينك يالأعور.

صفقت الباب بقوّة مُتمنّية لو يصفق وجهه.

لم تهُن الشتيمة على الأعور، في المساء اشتكاها لأبيها.

وهم يتحلّقون في الصباح حول سفرة الريوق كان أبوها يشخصُ بعينيه نحوها وهو يلوك لقمته وكأنّه يتمنّى لو يلوك قطعة من لحمها.

التفت لأمّها المُمسكة باستكانة الشاي:

ـ أمس عوض شاف بنتك تطلّ من الباب.

ارتجفت يدها وانسكب الشاي، مغتاظة نفثتْ:

ـ هذا كذّاب.. من يوم ضربتها وهي لا تخرج.

لوى عيسى شفتيه وقال:

ـ (بو طبيع ما يجوز من طبعه).

نظر إلى صفيّة، وهدّدها:

ـ إذا لم تتوبي، والله أقتلك.

صوت الأمّ مرعوبًا:

ـ هل جنّيت؟

ـ لأ ما جنّيت.. حالها حال بنت فلان اللي حذفها أبوها في الجليب (لا من شاف ولا من درى).

دافعت عنها:

ـ بنتي ما توصل هالمواصيل.

قال هازئًا:

ـ (البعير لو يشوف حدبته تنكسر رقبته). الله يسترنا.

فرّت صفيّة إلى غرفتها وأغلقت الباب. لم تُفكّر أن تذهب لتساعد أمّها، استلقت على فراشها وغفت حتى أيقظها صوت أمّها:

ـ يالله يا صفيّة.. صلاة الظهر.

تأفّفت، قامت بتباطؤ شديد. لم تكن تحبّ الوضوء ولا الصلاة لكنّها تُزاولهما دون خشوع. تقف خلف أمّها صامتة سارحة تتأمّل جسدها ومُؤخّرتها المستديرة المشدودة وتتمنّى مثلها حين تكبر.

حين أنهت الأمّ صلاتها لم تقف لتطوي السجّادة كعادتها فتوقّعت صفيّة شكواها الدائمة: (آخ يا راسي).

كانت أمّها تعاني صداعًا دائمًا وأبوها رغم الإلحاح لا يأخذها إلى الطبيب. يكتفي أن يُرسل لها (أمّ إبراهيم) بوجهها العريض وأنفها الصغير الذي لا يتناسب وحجم وجهها وعينيها الضيّقتين ذواتي الحواجب الكثيفة مثل الشوارب. تطقّ لأمّها (الشقيقة)[1] وتحصل على أجرها.

* * *

تجلس أمّها مقابل أمّ إبراهيم التي تسارع إلى إخراج مشطها الخشبيّ وتسلّ خصلة من منتصف الرأس حتى بداية الجبهة. تدهنها ثم تُجدّلها جديلة رفيعة. تمسكها بين أصابعها وتظلّ تطويها حتى تصل إلى الجبهة وتبدأ تشدّ.. وتشدّ.. وآهات أمّها تخرج مخنوقة ورأسها يُطقطق فتحسّ صفيّة بكلّ عظامها تطقطق وبقلبها يفرك من الألم. تُعيد أمّ إبراهيم الكرّة ثلاث وأربع مرّات ثم تترك الخصلة وهي تُطمئنُ أمّها التي احتقن وجهها وتورّم جزء من جبهتها:

ـ ما عليك شرّ.. اربطي رأسك وارتاحي.

---

(١) الشقيقة: الصداع النصفي.

تخرج أمّ إبراهيم فتنبطح الأمّ على المطرح بعد أن تشدّ العصبة على رأسها وتجلس صفيّة بقربها تتامّل وجهها المكدود وترجوها:

ـ يُمّه طقّ الشقيقة ما يفيد، لازم أبوي يودّيك إلى الطبيب.

ـ عجزتُ وأنا أطلب وهو يصمخُ عنّي، الشافي الله يا بنتي.

كانت أمّها قد استلقت على ظهرها. وتعرف صفيّة أنّها تعاني من وجع عظامها. سألتها:

ـ أهمّزك يُمّه؟

كأنّها بانتظار الطلب:

ـ يا ليت يا صفيّة الألم زايد في ساقيّ.

بدأتُ تهمّزها من الركبتين إلى الساقين المليئتين بالكدمات حتى أسفل القدمين المتشقّقتين. سألتها:

ـ هل أدهن لك قدميك بالفازلين؟

لم تردّ. غرشة الفازلين جاهزة. سحبتها من تحت المخدّة. ورهفتْ بدعائها:

ـ الله يريّحك يا بنيّتي ويستر عليك.

اشترطت صفيّة:

ـ لازم ترتاحين باكر الجمعة يوم الرّوحة إلى البحر.

ضحكت أمّها ضحكة هزيلة:

ـ أنتِ لا تهمّك إلّا الرّوحة للبحر.

ـ البحر حلو وهذا يوم وناستنا وم...

زجرتها بلطف:

ـ بس عاد لا تهذرين، باكر يصير خير، يالله همّزيني.

كانت في داخلها تدعو الله حتى تسترد أمّها عافيتها لئلّا يتعطّل مشوار البحر، لذلك اسْتبسلتْ.. دعكتُ، وهمّزتُ، وهي تسمع ونين أمّها مع كلّ همزة، حتى بدأ صوتها يخفت فأدركت إذ ذاك أنّها ولجت إلى سراديب النوم والأحلام.

* * *

صفيّة تحبّ البحر

تحبّ صفيّة يوم الجمعة لأنّها تنطلق فيه إلى البحر الذي تعشقه كما كلّ أهل الدّيرة الذين شبّوا على عشقه، وتوارث الأبناء والأحفاد هذا العشق. يدركون أنّه مصدر أرزاقهم من أسماك وقباقب ولؤلؤ يغوصون من أجله إلى الأعماق ليجلبوه، وتمخر سفنهم العباب في أسفار طويلة إلى البلدان البعيدة لتعود مُحمّلة بالخير. يحبّونه رغم أنّه غيّبَ الكثير من رجالهم، فترمّلت النساء الصغيرات وتيتّم الأطفال الذين كبروا وهم لا يعرفون آباءً لهم. وحده هذا البحر مُتنفّس للمدينة المُحاطة بأسوارها الثلاثة، هو مرتعهم وجالب أنسهم.

يوم الجمعة تخرج النساء باكرًا.. بقشّ الثياب على رؤوسهنّ ثابتة بألوانها المختلفة وكذلك البُسُط والسجاجيد المُغبرّة. القدور والصواني المعدنيّة ومضارب الثياب تتأرجح في أيدي البنات المُحناة شعورهنّ لتغتسل آخر النهار في ماء البحر. ولا تنسى النساء (مطّارات الشاي والدرابيل والبقصم والحلوى والرهش)، فهي زوّادة أنسهنّ التي يتحلّقن حولها خلال الاستراحة من العمل.

ينحدر الزقاق الضيّق من بين البيوت، تكاد النساء أن يتصادمن مبتعدات عن وسطه الذي يتجمّع فيه نزف المداعيب مُشكّلاً خارطات من الأوساخ لا تردع الصِبية عن التخوّض فيه.

من أحد البيوت ترتفع قامة سدرة بلونها الأخضر البهيج، تنثني بعض فروعها الملأى بالثمار على السور الطيني، فيتجمّع الصبية ويرشقون نحو الحجارة وعلب معجون الطماطم الفارغة، لتسقط حبّات (الكنار) الناضجة فيتسابقون ويتلاقطونه مُعفّرًا بالتراب. يحشون به جيوب دشاديشهم ليأخذوه إلى أهاليهم، وبعضهم يلتهم الكبير من حبّاته ولا يفكّر بأحد.

خديجة وصفيّة متلازمتان، تسيران وهما تعلكان العلك الوردي (أبو طقّة) وتتباريان في نفخه ليصير مثل التفاخة[1] ثم ينفجر فيلتصق بعض منه على وجنتيهما. أحيانًا تكبر تفّاخة خديجة وعندها لا تسلم من كفّ أحد الصبيان الشياطين الذي يصفعها بقوّة فتلتصق كلّها على وجنتيها، تغتاظ وتلحق به لتضربه بينما جوقة الصبيان يصفّقون ويحثّونه على الهرب، فتعود خائبة وهي تنتف ما التصق وتعيده إلى فمها. أمّا لو حدث هذا مع صفيّة فإنّها لا تحاول الثأر لأنّها لا تترك يد هلال خوفًا أن تزلّ قدمه بماء المداعيب.

النساء يثرثرن ويتضاحكن وتخفت أصواتهنّ حين يصدف خروج رجل من باب بيته أو مرور بعض الرجال المتّجهين إلى المسجد المطلّ على البحر.

---

(١) التفّاخة: البالون.

كلّ الأقدام حافية... تلتصق بها أوساخ الزقاق فلا يُبالي أحد بها، فعند الشاطئ سيجرفها الرمل ويُطهّرها الماء.

* * *

للبحر ألقه الخاصّ... رائحته الشهيّة... لونه الذي تنعكس عليه ألوان السماء، زرقة صافية وقت الظهيرة، رماديّة حين تُقرّر الشمس أن تنسحب ويشتهي قرصها الاستحمام، رويدًا رويدًا يسقط القرص ويُلوّن البحر باللون البرتقالي قبل أن يذوب في الماء.

هلال يسأل أمّه:

ـ إذا غرقت الشمس وين تروح؟

ـ الشمس ما تغرق، تروح بلدان ثانية.

ـ زين والناس اللي تغرق! بعد تروح بلاد ثانية؟

لا تتذمّر أمّه من أسئلته وتردّ:

ـ الناس إذا ماتوا يروحون السما عند ربّهم.

ـ يطيرون؟

تدرك أمّه أنّ فضوله لا حدّ له، وسيتبع السؤال بعشرة أسئلة فتغمره بقبلاتها وتتخلّص منه بوعدها:

ـ في الليل أحكي لك كلّ شيء.

وهي متأكّدة أنّه سينسى.

تشرف الجموع على البحر المنفرش بقامته العريضة وأمواجه الضاحكة، ببياض زَبَدِهِ الذي ما إن يصل إلى الشاطئ حتى يتناثر

كأنّه أسنان تتساقط من ثغره.

تفرح النساء حين يكون البحر في حالة (المَدّ). فالماء يصل إلى الشاطئ بعيدًا عن صخوره الناتئة ورذاذه الدافئ يتطاير على الرؤوس. يبدأن بفضّ بُقشهنّ وإخراج الثياب وفرشها على رمل الشاطئ حيث الماء القليل ثم تنزل المضارب عليها صفعًا وطرقًا حتى تلتمع نظافتها، بعضهنّ يفرشن السجاجيد ويدعكنها بالرمل ثم بضربها بالمضارب حتى تزهو ألوانها ثم يبعدنها عن الشاطئ لتجفّ على الرمل أو ينشرنها على بعض الصخور البعيدة قليلاً.

الأولاد الصغار والبنات يتراكضون على الرمل في سباق لجمع (الزّبابيط والقواقع) التي يدفعها المَدّ إلى الشاطئ ويلهون بالرمل.. يبنون البيوت ويزيّنونها بأعشاب البحر المتناثرة بزفرها، لكنّ الماء سرعان ما يجرفها أو تدكّها أقدام الصبيان فتنشب النزاعات بينهم ولا تهدأ إلّا حين تتدخّل إحدى النساء الكبيرات تزجرهم وتفضّ اشتباكهم.

يهرع الأولاد إلى البحر.. من يتقن السباحة منهم يبتعد عن الشاطئ، ومن لا يجيدها ويخاف، يغطس في الماء الضحل وتنفرش سراويلهم. أمّا البنات فينزلن بملابسهنّ وشعورهنّ المُحنّاة ويبدأن بمحاولة تعلّم السباحة فرحات حين يرتفعن ويهبطن دون التعرّض للغرق.

* * *

صفيّة تحبّ البحر.. هو يوم حرّيّتها من أعمال البيت، تركض على الرمل مُتسابقة مع البنات ثم تنحرف إلى صفوف الأولاد وكلّها

رغبة أن تسابق سعود ذا العينين الباهرتين، وتثير بذلك غيرة حميد الذي يلحق بها ويعرقل خطوتها فتقع وتخسر السباق فترشقه بالرمل. يلحق سعود بحميد ويشبعه ضربًا ويراضي صفيّة بسباق آخر تاركًا لها الفرصة أن تفوز عليه ثم ينطلقان إلى البحر يغطسان ويتراشقان بالماء.

عينا أمّها تغفلان عنها أحيانًا ولا تنتبه الأمّ لغيابها إلّا حين يبكي هلال. تقف صفيّة والماء يصل ساقيها وتحرّك رأسها في كلّ اتّجاه وعيناها تحدّقان حتى تراها فتشير لها أن تعود، تنتظرها وما إن تصل والماء يتقاطر منها حتى تشدّ على زندها:

ـ قلتُ لكِ لا تروحين بعيد وتتركين أخاك (يلعي) على قلبي.

تغضب وتلوم أمّها:

ـ يُمّه أنتِ ما ترضين أن آخذه ليلعب معي.

ـ تاخذينه علشان تهيّتينة وحده.

تحلف:

ـ والله العظيم ما أتركه.

أمّها التي تعرف أفعالها:

ـ أنا أدري بعمايلك، اللعب ياخذ عقلك.

تتحسّر صفيّة وهي تشاهد الأولاد والبنات أحرارًا يلهون ويغطسون وهي جالسة تحرس هلال، لكنّها لا تحقد عليه، حبّها له يطغى على وناستها تبدأ تلعب معه بالرمل والقواقع، بينما عيناها

بين لحظة وأخرى تتّجهان إلى البحر. بحسّه الطفوليّ يدرك حسرتها يلتفت إلى أمّه:

ـ يُمّه بروح البحر مع صفيّة.

تنتشي صفيّة تعرف أنّ أمّها لن ترفض طلب هلال.

تنظر أمّها إليها بنظرة تهديد:

ـ والله لو صار له شيء أدفنك في هذا البحر.

بكلّ فرحها تحمل هلال وتركض به.. وهناك تجلس في الماء وهو في حضنها تلاعبه وتُغسّله وهي تغنّي له:

(البحر هذا بحرنا.. نعمة الله علينا..). وتتراقص معه حتى يتعب فتعود وهي تحمله على ظهرها سعيدًا يردّد كلمات الأغنية.

* * *

تجلس صفيّة بقرب أمّها التي تتحلّق من حولها النساء.. أمّ داوود وأمّ فاضل العرجاء و(أمّ الشيبة). هكذا سمّوها منذ كانت في العاشرة من عمرها وشاب جزء كبير من شعرها ولا يدري أحد بسرّها. تراقبهنّ وهنّ يغسلن الثياب ويفركن القدور بالرمل والحصى وتستمع إلى حديثهنّ الذي لا يتوقّف. أحيانًا كانت تستمتع بسماع الحكايات الغريبة وسرعان ما تضجر حين يتكلّمن عن نساء أخريات لا تعرفهنّ، لكنّها تضحك إذا ضحكن ولا تفتح فمها بكلمة أو سؤال. أمّا إذا صَمَتْن ـ ونادرًا ما يفعلن ـ فتجدها صفيّة فرصة لتكلّم أمّها:

ـ يُمّه ليش البحر أزرق؟

ولأنّ الأمّ تجهل أنّ انعكاس السماء عليه يعطيها لونه، تردّ وكأنّها العالمة:

ـ الله خلقه أزرق علشان يفرّقه عن لون الأرض وما نطيح فيه.

تسرح صفيّة ثم تقول لأمّها بصوت يفوح منه عطر التمنّي:

ـ يُمّه ودّي أركب (البوم)[1] وأسافر بالبحر.

تنظر إليها أمّ الشيبة بعينيها التي ازرقّ ماؤهما:

ـ أنتِ مجنونة؟ البحر ما يرحم. دخله جدّي غوّاصًا مع النواخذة، غطس ونهشه (اليريور)[2]. ومثله مثايل. البحر غدّار.

صفيّة كشّرت في وجه أمّ الشيبة وبلسانها الطويل:

ـ أنا ما راح أغطس علشان ينهشني اليريور.

ـ حتى لو ما غطستِ، يسحبك (بو درياه)[3] أو تطلع لـ...

قاطعتها ثاجبة:

ـ بس واللي يعافيك.. لا تخوّفين البنت.

أمّ فاضل وكأنّها لم تسمع أمر ثاجبة، أضافت لكلام أمّ الشيبة:

ـ عمّي كلّ مرّة يدخل البحر ليغوص يشوف الموت بعينه.

---

(١) البوم: سفينة شراعيّة صغيرة.
(٢) اليريور: سمك القرش.
(٣) بو درياه: عفريت البحر.

ثاجبة ذكّرتها:

ـ بس اللي نعرفه أنّ عمّك كان (فلّاق محار)، ما كان (غيص).

لم يهن على أمّ فاضل أن تكذّبها ثاجبة:

ـ بدأ غوّاصًا، ويوم استمرض عفاه النوخذة وخلّاه فلّاق.

أصدرت ضحكة عالية وأكملت:

ـ الله يرحمه كان يتمنّى أن يجد دانة أو لؤلؤة ويخفيها عن عيون النوخذة.. بس ما أكرمه ربّي.. ومن غيظه سمّى بناته.. لؤلؤة ودانة.

ضحك الجميع وعلّقتْ ثاجبة:

ـ والله خوش أسامي.

كانت أمنية صفيّة أن تتعلّم السباحة كباقي الأقران خاصّة خديجة التي تثير غيرتها.. لذلك كان إلحاحها لا يتوقّف كلّما ذهبوا إلى البحر لكن أمّها ترفض:

ـ ما علينا من خديجة، أخاف عليكِ من الغرق.

تنشغل أمّها فتنتهز صفيّة الفرصة. تركض إلى البحر منادية خديجة الغاطسة حتى رأسها، والتي ترفع ذراعها وتدعوها:

ـ تعالي. لا تخافي سأعلّمك السباحة.

لا تتأخّر صفيّة، تدخل الماء وهي تترنّح فتدنو منها خديجة وتمسك بذراعها وتسحبها إلى العميق. تشجّعها وتعلّمها كيف

تحرّك ذراعيها وقدميها لترتفع ولا تغرق.

افتقدتها أمّها:

ـ هلال وين أختك؟

لم تنتظر... ركضتْ إلى البحر.. خوّضتْ حتى منتصفها ورأتها:

ـ طلعي يا صفيووه.

خرجت وتلقّت من أمّها لكمة على ظهرها وهي تتوعّدها:

ـ ما راح أجيبك البحر إذا ما تسمعين الكلام.

لم تسمع الكلام. ولم تُثنها أوامر أمّها.. هدّدتها الأمّ أنّها ستفتن عليها لأبيها. فلم تهتمّ لأنّها واثقة أنّ أمّها لن تفتن لشدّة حبّها لها وخوفها عليها من العقاب. هكذا وبعد محاولات أتقنت صفيّة السباحة وتفوّقت على خديجة.

* * *

عقاب آخر

(الشارع كالساحر الذي تنجذب إليه صفيّة. غواية لا تجعلها تُفكّر في العقاب الذي ستناله. أمّي تحذّرها وتراقبها، لكنّها تسهو بعض الأحيان فتجد فرصتها، تغريني كيْ أخرج لألعب مع رفاقي فأفرح. لكنّها بعد قليل تلحق بي فأخاف عليها:

ـ صفيّة ادخلي.

ترفض وحجّتها:

ـ أخاف يا هلال أن يضربك الأولاد.

ـ خلاص... لا أريد أن ألعب وسأدخل معك.

تقطع عليّ متعتي.. ندخل ونغلق باب جهنّم).

* * *

لكنّ الباب ينفتح ذات يوم ويدخل منه (روضان) الذي كانت صفيّة تُؤثره على كلّ الصبيان. كانا يتلاصقان مُندمجين في تحسّساتهما المثيرة، لكن سوء حظّهما كشف سترهما. فقد عاد أبوها مبكرًا على غير عادته. ولج من الباب المُوارب وصادهما.

عاط بهما بغضبه الذي أثاره المشهد. فرّ روضان ناجيًا بنفسه تاركًا صفيّة تواجه مصيرها.

جنّ جنون الأب. أمسكها من جديلتها وجرّها مثل ذبيحة. دخل بها إلى الحوش يسبقه صراخه:

ـ (ثاجبو) تعالي يا الهاملة شوفي بنتك.

هرعت هي وهلال مُتوقّعين الشرّ:

ـ خير؟

سألتْ وهي ترتعد كعادتها حين يصرخ.

قال وهو ما يزال يقبض على صفيّة:

ـ خير!؟ ما يجي من بنتك غير الشرّ. كانت بالدهليز لاصقة بالكلب روضان، هالمرّة الصبيان يدخلون بيتي.

ثاجبة التي صُدِمَتْ لم تجرؤ أن تُبرّر فعلة صفيّة. مرتعشة وقفت أمام ثورة الأب، لا تسعفها كلمات تُهدّئ بها غضبه ولا تحاول أن تنقذ صفيّة من براثنه وهو يبطحها أرضًا ويدوس بكلّ قوّته على ركبتيها حتى أمشاط قدميها:

ـ سأكسر رجليك حتى تتوبي يا (الهيسة)[1].

صفيّة تعوي وهو يطحن بعظامها، وأمّها:

ـ يكفي يا عيسى كسّرت البنت.

(١) الهيسة: صفة للبنت النزقة اللعوب.

ـ الودّ ودّي أن أكسر راسها وأرتاح.

تركها تئنّ.. وابتعد.

* * *

(لم يكن تعذيب صفيّة سهلاً على قلب أمّي، لكن ذنبها هذه المرّة تجاوز الحدود، لذلك لم تهتمّ لأنينها وهزّتها من كتفيها بكلّ حنقها:

ـ وصلتْ بكِ الجرأة أن تُدخلي الصبيان إلى البيت؟

حسبتُ وأمّي أنّ أبي اكتفى برضٍّ رجليها.. لكنّنا فوجئنا به يدخل وحبل ثخين يتأرجح بيده، دفع أمّي التي كانت تحضنها وسحب صفيّة منها:

ـ تعالي.

أمسكتْ به أمّي والفزع يتناثر من صوتها:

ـ ماذا ستفعل بالبنت؟

ـ سوف أربّيها لتتوب. والله لن أسكت عن أفعالها.

نلحق به ولا ندرك المجهول الذي ينتظرها.

أسندها إلى عمود الليوان وبدأ يلفّ الحبل عليها بادئًا من كتفيها حتى أطراف قدميها. حين تكبّل كلّ جسدها في العمود، نظر لأمّي الواقفة بضعفها وينابيع دموعها:

ـ والله.. وبالله، إن فكّيتيها بتشوفين شيٍّ ما شفتيه.

ظلّتْ صفيّة مُقيّدة من الظهر حتى صلاة المغرب. الشمس

حارّة وأمّي تُبلّل فوطة وتحمي بها رأسها من وهج الشمس. لم تسيطر صفيّة على حاجتها فأغرق بولها ثيابها وانساب على الأرض خطوطًا تغري أسراب النمل والذباب فتتراكم عليه. أمّي تسقيها الماء وتلقمها الأكل ورغم حزنها تُعنّفها:

ـ هذي فعلة تفعلينها؟ زين ما ذبحك أبوك، تراه ملّ من أفعالك.

جلستُ بقربها أبكي، خافت عليّ أمّي:

ـ ادخل يا هلال.. الشمس حارّة.

ـ لن أدخل، حالي حال صفيّة.

صفيّة بحنان أيّدتْ كلام أمّي:

ـ إذا تحبّني يا هلال اسمع كلام أمّي.

دنوتُ منها، حضنتها ومرّغتُ وجهها الحارّ بدموعي غير آبهٍ برائحتها.

لم يفُكّ أبي وثاقها إلّا بعد صلاة المغرب. خلعت عنها أمّي ملابسها فبدت حزوز الحبل على ذراعيها وساقيها. دلّكت أمّي جراحها. تُبسمل تارة وتشتم أبي تارة أخرى وتلوم صفيّة بقسوة.

أمّا صفيّة فقد ظلّت ساكتة لا تفتح فمها بكلمة فلا تسمع غير التأوّه وأنينها الذاوي مصحوبًا بشهقات دموعها. أكلتْ بشراهة ثم نامت كالمقتولة).

* * *

التحريض

(كنتُ في السابعة من عمري حين قرّر أبي أن أذهب إلى المُلّا أبو صالح لأتعلّم القرآن. كنت أكره هذا المُلّا لأنّه ذات يوم فتن على أختي، لكن الذي يأمر به أبي لا بدّ أن يُطاع، فهو صلب الطبع والقلب. أمّي فرحتْ وبلطفٍ شديد قالت له:

ـ ليش ما تخلّي صفيّة تدرس عند (المُطوّعة)[1] يمكن الله يهديها وتعقل.

رفض أبي بشدّة فحاولتْ:

ـ يا عيسى كلّ البنات يتعلّمن القرآن.

نظر إليها مُذكّرًا:

ـ بنتك ليست كباقي البنات. باكر تنخاش[2] من المطوّعة وتهيتْ في الشوارع.

لم تحاول أمّي بعد ذلك وكأنّ أبي نبّهها لأمر غاب عنها.

---

(١) المطوّعة: التي كانت تدرّس البنات القرآن الكريم.

(٢) تنخاش: تهرب.

رغم صغر سنّي، بدأ أبي يحرّضني على صفيّة ونحن في طريقنا إلى المُلّا:

ـ تابع أختك، لا تخلّيها تطلع الشارع، وإذا سوّتها اضربها.

ـ يُبَه ما أقدر هي أكبر منّي.

قال أبي:

ـ حتى لو هي الأكبر، أنت الولد وهي البنت امسك العصا والعن خيّرها.

ـ يُبَه أنا أحبّها. ما أقدر أعوّرها.

ضرب رأسي:

ـ (حبّتك القرادة). أختك هذي شرفك ولازم تحافظ عليها.

لم أفهم، سألته:

ـ يعني شنو شرف؟

هدّأ أبي من لهجته، أحاط كتفي بذراعه:

ـ شوف.. لو صار لأختك شيء مو زين، تحطّ رأسنا في الطين. البنت لازم تكون عفيفة وما يلمسها أحد غير زوجها.

دافعتُ عنها:

ـ بس يُبَه أنا ما أشوف الصبيان يلمسونها، هي بسّ تحبّ تلعب معاهم.

قرص خدّي:

ـ يا (الخبل).. اليوم تلعب معاهم باكر يلعبون فيها.

تحمّستُ:

ـ والله أضربهم.

دفع برأسي إلى الخلف:

ـ اضرب أختك ومالك شغل بخلق الله.

* * *

وخلق الله ما تركوني بحالي، كانوا يحدّقون بي بعيون حمراء. أحدهم ضرب قمّة رأسي بكفّه وهو غاضب:

ـ لا تخلّي أختك هايتة، إضربها.

أجبته بذلّ:

ـ هي أكبر منّي.

ـ حتى لو.. هي البنت وأنت الولد، يعني الرجّال.

كانت تلك حجّتي قبل أن أكبُرَ وتكبرُ صفيّة، ما كنت أعرف أنّ أختي تنحرف في سلوكها عن الصواب. رغم ذلك كنت أحميها من غضب أبي حين ينهال عليها بالخيزرانة. أحرسها بجسدي وآكل الضربات التي يضاعفها لي وهو يصرخ:

ـ ابتعد يا كلب، هذا بدل أن تأخذ الخيزرانة منّي وتجلدها.

ربّما.. ما رأيت تعذيب أبي لها لصرتُ قاسيًا مثله وثأرت للشرف الذي يعنيه ولا أعرفه. لكنّني كنتُ كلّما أوغل في بطشه أوغلتُ في حبّي وحمايتي لها).

* * *

حرمان من الشارع

في الحادية عشرة من عمرها حرّم عليها أبوها الخروج إلى الشارع، ففقدت بذلك عالمها الحرّ المُتحرّك، ورغم وسوسة شيطانها لها فلم تجرؤ على الخروج. فإن لم يصادفها أبوها فهناك أكثر من عين تتحبّل بها لتفتن عليها خاصّة عين الأعور وعينَيْ المُلّا.

باكرًا عرفتْ صفيّة الجنس، كانت تنبطح على بطنها وتراقب الهرّ والقطّة وهما يتزاوجان تحت كرسي البرمة أو الحُصران المطويّة. بمتعة كانت تتابع مداعباتهما وصوت هريرهما المتناغم حتى يلتحم الجسدان فتميع هي من اللذة وتسرع إلى غرفتها وهي ترتعش وتبدأ كفّها تُهدّئ بالمنقار الذي استثاره المشهد.

لم تحتمل حرمانها من الشارع، فصارتْ تجلس خلف الدريشة المُطلّة عليه. تتحسّر وتحسد البنات. كانت مُتعتها مراقبة الشبّان الذين يأتون من البحر مُورّدة خدودهم من مِلحِه وشمسه، وأولئك المُتربة شعورهم، المُتوحّلة أقدامهم الحافية وهم يتشاجرون متبادلين الكلمات البذيئة المثيرة. أو حين يتصارعون فترتفع

دشاديشهم لتكشف عن سيقانهم الفتيّة وتظهر أعضاء بعضهم الذين بلا سراويل، فتتدغدغ. كانت متعتها الكبرى حين يقفون تحت الدريشة يتبارون برشّ بولهم على الحائط، فتتلصّص على عوراتهم المُتفاوتة الأحجام. وحين يصدف ويلمحها أحدهم يتظاهر بأنّه لا يراها ومُتعمّدًا يبدأ يداعب (شيئه) قبل أن يبوّل قاصدًا إثارتها، وهي في مكانها مهتاجة من الرغبة. كان المشهد يُسرّب إلى جسدها عشرات النمل الذي يصير فلولاً ويفقس آلاف البيوض فتهرش بيدها لتُخرس الفلول.

* * *

لم يكن ينغّص عليها متعتها إلّا صوت أمّها تناديها لتحمل طشت الثياب المغسولة وتنشرها في السطح. كانت تتذمّر وتخترع الحجج كي لا تصعد:

ـ يُمّه الشمس حارّة.

تبلّل أمّها فوطة وتضعها فوق رأسها:

ـ هذا يخفّف عنك حرارة الشمس.

ـ يُمّه النمل كثير في السطح وأنا أخاف منه.

ـ النمل لا يؤذي بس أنت لا تدوسين عليه.

كانت تكره النمل لأنّه يتعربش أحيانًا على قدميها فتلاحقه وتدوس عليه وتدكّ أوجاره. مرّة سألتْ أمّها:

ـ ليش الله خلق النمل؟ ما له فائدة.

تنهاها أمّها:

ـ استغفري ربّك فهو لا يخلق مخلوقًا بلا فائدة.

لا تقتنع بكلام أمّها وتواصل تدمير الأوجار.

أكبر حُججها التي تخترعها لأمّها هو خوفها من بيت الجيران الذي لا يفصل بين سطحيهما سوى سور حافّته عريضة. لم يكن يسكن البيت أحد بعد أن ماتت فيه العجوز (أمّ خلفان) وغادرته ابنتها مع زوجها تشاؤمًا منه. فظلّ (لا حسْ ولا رسْ).

تقول لأمّها:

ـ البيت الخالي يسكنه الجنّ.

تقرص خدّها بلطف:

ـ والله ما غيرك جنيّة، والجنّ يخاف منك.

لا تنقذها أيّ من حُججها. تحمل الثياب على رأسها وتصعد متكاسلة لتنشرها.

* * *

في سطحهم كما في سطوح الناس، تتراكم (بساتيك الأجار)[1] وتنتشر الصواني الكبيرة التي يجفّفون بها السمك والربيان، وعلى حبال من الليف تُعلّق اللحوم ببهاراتها لتجفّ هي الأخرى. كانت الروائح تفوح وتثير قرفها.

(١) بساتيك الأجار: البستوك ماعون خاصّ يوضع به الطرشي المصنوع بالبيت ويترك بالسطح ليستوي بحرارة الشمس.

بعد شهور استعاد البيت روحه ودبّت فيه الحركة حين استأجره أبو حسين السمّاك، يومذاك قالت ثاجبة لزوجها:

ـ سأزور جيراننا الجُدد وأسأل هل هم بحاجة لمساعدة.

قال عيسى:

ـ ليس في البيت حريم. هو وابنه فقط.

دُهشت:

ـ كيف يؤجّرونه لعزّاب؟

ـ أنا مثلك استغربت وتضايقت.. رحت سألت (الدلّال)[1] فقال إنّ زوجته وبناته سيلحقن به.

* * *

(١) الدلّال: السمسار.

حكاية السطح

ذات يوم وهي غارقة بعرقها تنشر الثياب سمعت صفيرًا عذبًا، طار على إثره حمامٌ كثير وكاد يحجب عين الشمس. صار يحلّق بحركات رشيقة ويثير جلبة حنونة، يرتفع فيبدو من البعيد كالقشور التي تحرّكها الريح. ابتهج قلبها للمنظر وظلّت تتابعه حتى سمعت الصفير مرّة أخرى، عندئذ رأت أسراب الحمام تتهاوى كأوراق شجر دهمتها عاصفة.

تحيّرتْ! من أين جاء هذا الحمام؟ ولماذا يُذريه الصفير ثم يؤوب به! لم يخطر ببالها أن تقترب وتلقي نظرة إلى سطح الجيران.

بعد أيّام استبدّ بها الفضول، سحبت أحد الصناديق المركونة في السطح وصعدت عليه. وبحذر أطلّت برأسها. كان الحمام بألوانه البيضاء والرماديّة والسوداء ينتشر على أرض السطح يلتقط الحبوب ويشرب الماء. استعذبت المنظر ونسيت الثياب في الطشت وظلّت تتفرّج وهي جذلى.

سمعتْ خطوات.. جفلت.. لكنّها ظلت في مكانها تراقب.

رأته... خارجًا من غرفة سطحهم، شابّ نحيل. يمسك بعصا رفيعة بآخرها خرقة بيضاء. أخذ يلوّح بها مع صفير متواصل فاهتاج الحمام وطار وبدأ رحلة لهوه المُمتعة في الفضاء. ها هي عرفت سرّ الحمام لكنّها تريد أن تعرف أكثر عن الذي يُطيّر الحمام.

* * *

عادت إلى الثياب تنشغل بنشرها وعقلها سارح ومشغول بذلك الشابّ. انتزعها من شرودها ظلّ رأس يطلّ من السور، خفق قلبها وازداد الخفق حين سمعت الصفير، لكنّها لم تلتفت. بإصرار تكرّر الصفير فارتبكت. حملتْ الطشت واتّجهت نحو الدرج لتغادر لكنّ صوتًا عذبًا فاجأها:

ـ صفيّة... صفيّة

استدارت غاضبة:

ـ من أنت؟

ـ أنا حسين، ابن جاركم.

اقتربت حيث يُطلّ، كان يبتسم، حنقتْ عليه:

ـ وكيف عرفتَ اسمي؟

ـ من الصبيان الذين كنتِ تلعبين معهم.

أفلتَ ضحكة وأردف:

ـ ليش ما تلعبين مع البنات مثلك؟

ـ ما خصّك.. أنا أحبّ الصبيان.

انتفشت ابتسامته:

ـ وأنا أحبّ البنات.

جاءت الكلمة على هواها.. ضحكت.. صعدت على الصندوق، لا يفصل بينهما غير الجدار، أزاحت غُرّتها التي سُدلت على عينها وسألته بدلع:

ـ وماذا تريد؟

ـ أسولف معك.

لَوتْ شفتيها:

ـ أنا ما أحبّ سوالف الصبيان.

ابتسم:

ـ بس تحبّين محارشاتهم.

مدّت له لسانها:

ـ وأنت؟ هل تريد أن تحارش؟

ـ لأ... أريد أن نلعب مع الحمام.

ـ نصفّر له ويطير.

تشجّع:

ـ شُفتِ ما أحلى حركاته؟

ـ وايد حلوة.. أنا أستأنس لمّا أشوفه.

ارتاحت قسمات وجهه:

ـ لو تشوفينه (بالبنديرات) تستأنسين أكثر.

ـ ما أقدر.

ـ ليش؟

ـ أبوي ما يرضى أطلع.

سهّل الأمر عليها:

ـ خلاص.. نُطّي إلى سطحنا، أبوك لن يعرف.

لم تردّ، لكن فكرته أعجبتها ودغدغتها، فشرد الخيال بها. ها هو بابُ أنسٍ جديد يُفتحُ لها بعدما حرّموا الشارع عليها. قطع شرودها:

ـ ليش ساكتة؟

بصوت رخو:

ـ أفكّر.

ماج الفرح على وجهه:

ـ تنطّين؟

انتفض الخوف:

ـ أخاف أطيح وتنكسر رجلي.

ـ لا تخافين، أنتِ نُطّي وأنا أمسكِ.

لم يكن فضولها الذي بلغ مداه من أجل اللعب مع الحمام، كان شوقها المكبوت للّعب مع الصبيان هو الذي أشعل نزقها. شعرت بالرغبة الجائعة تحرث بداخلها وتدفعها إلى أن تعطيه الوعد:

ـ زين.

ملهوفًا صدح بالسؤال:

ـ متى؟

ـ باكر.

ـ الصبح؟

ـ لأ.. في القايلة لما ينامون أهلي.

فرحًا قال:

ـ سأنتظرك.

* * *

مدّ كفّه. لامس كفها المُمسكة بجدار السور. سرَتْ بأعطافها قشعريرة تشبه تلك التي كانت تحسّها حين ترى عورات الصبيان، وتلك التي شعرت بها في الدهليز مع روضان.

نزلتْ من السطح وقد انقدحت بداخلها أعواد كبريت فأجّجت نارًا شعّت ألوانها كألوان الشمس. شعرت بالدبيب الذي يجوس في أوردتها يهدأ ويستريح. دثّرتها رخاوة رطبة، كانت كمن تُحلّق

في السماء.

مشمولة بصفاءٍ غريب دخلت إلى غرفتها قاصدة الاختلاء بنفسها. استلقت مستمتعة برعشاتها وبدأت كفّها تعابث المنقار. حين ارتاحت سافر بها ذهنها إلى حقول مُرتعشة الغصون تتطاير منها العصافير. غلبها النعاس وبدأت تتلوّى في تعاريج أحلامها.

* * *

لم يكن أثر اللمسة وحده الذي حفّزها على بدء رحلتها إلى السطح، كان حسين قد جذبها بوجهه الأبيض الجميل وشعره البنّيّ المسدل حتى رقبته ويتناثر بعضه فوق جبهته. أعجبتها تحديقة عينيه العسليّتين وهما تشعّان بلمعة جريئة، وشفتاه المكوّرتان كحبّتي بلح أحمر. اكتشفت أنّه أجمل صبيان الشارع. ثيابه نظيفة وأظفاره مقصوصة وليست كأظفارهم التي يتجمّع تحتها نقاف أنوفهم وبقايا الأكل.

كانت في بداية تفتّحها، ابنة الثانية عشرة وهو في بدء مراهقته في الخامسة عشرة.

منذ ذلك اليوم هجرت الدريشة التي أسرتها خلف قضبانها لأكثر من سنة. صار السطح عالمها الذي أغناها عن التلصّص والتحسّر، وصار نشر الثياب أجنحتها التي تطير بها إلى حسين.

استغربت أمّها التحوّل الذي طرأ عليها:

ـ صرت لا تتأفّفين من طلعة السطح وريحة الربيان والسمك.

خافت أن تلمح أمّها ما يوحي بكشف سرّها، تظاهرت

بالمسكنة:

ـ يُمّه خلاص تعوّدت.

نبّهتها بصوت جادّ:

ـ إيّاكِ أن تطلّي على الشارع، إن لمحكِ أحد سيفتن لأبيكِ.

تراقصت في سرّها شامتة بغفلة أمّها:

(أيّ شارع؟ لم يعد يهمّني).

طمأنت أمّها وبدهائها أرادت أن تؤكّد لها:

ـ يُمّه ترى أنا خلاص تُبتْ وارتحت من ضرب أبي.

أعلنت الأمّ فرحتها بالقبلات والدعاء:

ـ الله يتمّم عليكِ العقل والدين.

* * *

حسين والحُبّ

هل يمكن أن تتوب وجسدها يحتشد بالرّغائب!؟ كانت اللعنة قد سكنت الجسد بسبب ذلك المنقار المتحفّز، وقد استثمرتها ببراءتها في محارشات الصبيان ومداعباتهم. السطح الآن سيفتح لها بَراحَةً تجهل مساحتها لكنّها بحسّ جسدها الفائر تدرك أنّ أمطارًا دافئة ستروي أرضها وتُنبت أعشابها.

امتدّ بها الليل.. غازلت قمره بعينين تأتلقان ببريق ساحر. فكرها يتأرجح بها، هل تصعد؟ ماذا لو كُشف أمرها وألهبتها العصا؟ تلمّستْ جسدها، ليس فيه بقعة لم يُهشّمها أبوها، وقد قرّرت في سرّها:

(لن أصعد).

لكن روحها التائقة تحرّضها على مقاومة خوفها. أغمضت عينيها وقرّرت:

(سوف أصعد).

كان بانتظار وعدها.. وكانت بانتظار غطيط أهلها في نوم

ظهيرتهم المعتاد لتصعد. مشّطت شعرها، قرصت خدّيها لتشبّ بهما الحمرة، ورغم جسارة الشمس ذلك النهار تسلّلت إلى السطح بهدوء.

اعتلتْ الصندوق ونادت بصوت خفيض:

ـ حسين.

أطلّ وجهه بأسرع ما توقّعتْ.

ـ هلا صفيّة.. تأخّرتِ.

ـ انتظرتهم حتى ناموا.

دعاها بحركة من كفّه:

ـ هيّا.. نطّي.

لم تتلكّأ.. قفزت إلى الحافّة.. أسدلت ساقيها.. شبك يديه حول خصرها، وارتاحت يداها على كتفيه، شدّها إليه وأنزلها برفق. ظلّ ملتصقًا بها وهي ملتصقة بالجدار. غلت دماؤها وتراقصت في شرايينها. أرخى يديه عن خصرها وأمسك بيدها مُتّجهًا بها إلى غرفة الحمام. دخلا وأغلق الباب، سألته ببراءة:

ـ لماذا تصكّ الباب؟

ـ حتى لا يطلع الحمام.

ـ كلّ يوم الحمام يطلع ويطير.

ـ بس اليوم لا أريده أن يطلع حتى تشوفينه.

ارتاحت.. لكنّها بسطت راحة كفّها على أنفها وفمها لتمنع تسرّب خلائط الروائح المتخمّرة في الغرفة.

أسْرتْ بعينيها إلى مساكن الحمام المعلّقة على الجدران، بعضها من علب التنك والكرتون وبعضها من صناديق الخضرة الفارغة. أخذت تتأمّلها والحمام يُغرغِرُ بهديله الشهيّ.

بدأ يفتح أبواب البنديرات ويكشّ الحمام منها فينطلق فزعًا يتصادم بعضه ببعض ويملأ حيّز الغرفة الضيّقة بحفيف أجنحته الصاخب. صارا يتباريان للإمساك به وهما يتضاحكان والريش يتطاير ويسقط على الأرض يحطّ الناعم منه على شعرها وشعره. أمسك بكفّها:

ـ تعالي تفرّجي على البيض والفروخ.

أوقفها عند واحدة من البنديرات، زجّت نظرها فرأت جماعة الأفراخ مُغمّضة العيون وأجسادها خالية من الريش، كانت تتلاحم بعضها ببعض وتُصدر وصْوَصة ناعمة، مدّت يدها تداعبها وتُوصْوص مثلها.

اقترب منها.. ألصق جسده بجسدها.. لم تفزع ولم تبتعد، كانت الرعشة قد تسرّبت إلى الجسد الظامئ واستفحلتْ بها أكثر حين شعرت بالذي يداعبها من وراء ثيابها. الجسد يفور بالحرارة والنار تشبّ في المنقار.

قطع عليها أذان العصر وصلة استمتاعها، ركضت إلى الباب:

ـ سيصحون الآن للصلاة.

رفعها إلى السور وقبل أن تنحدر إلى سطحهم همس لها:

ـ تعالي كلّ يوم.

لم تكن بحاجة لدعوته، قلبها قرعتْ أجراسه، ونمل الجسد الذي فرّ من كمائنه يتعذّر إسكاته، لقد انفتح لها باب الدخول إلى عرائش الجنّة المجهولة.

* * *

في غرفة السطح كانت حكايتها الأولى التي نسجت خيوطها بعيدًا عن العيون. بدأت حبًّا بريئًا بدعابات صغيرات لكنّ الرغبة سرعان ما فتحت مزاليجها وتدفّقت سيولها. لم يكن عقلها يدرك إلى أين تجرفها السيول، لكنّ الجسد المؤهّل منذ طفولته بذلك المنقار المتوحّش جعل رغائبها تنساق إلى حيث تتذوّق مُتعًا لم تعرفها من قبل وهكذا تجاوز الحبّ براءته.

كانت البداية حين سألته:

ـ من أين تأتي بكلّ هذا الحمام؟

ـ من سوق (الدهلة)، هناك يبيعون الدجاج والحمام والأرانب والبيض.

ـ وأنت اشتريت كلّ هذا؟

ـ اشتريت ستّة أزواج، صارت تتزاوج ويكثر الحمام.

بدهشة واسعة سألته:

ـ وهل الحمام يتزوّج؟

ـ طبعًا مثل الناس.

ـ والناس كيف يتزوّجون؟

قرص خدّها:

ـ يالملعونة... ما شفت أمّك وأبوك ماذا يفعلان وهما في الفراش؟

ـ أنا وهلال ننام في غرفتنا ولا أعرف ماذا يفعلان.

انتهز الفرصة:

ـ تحبّين أعلّمكِ؟

بانجذاب ودون تردّد:

ـ أحبّ.

ـ تعالي.

أجلسها على الأرض:

ـ نامي على ظهركِ.

خضعت لأمره.. استلقت فوق الريش وقاذورات الحمام والحبوب المتناثرة، واستلقى بجانبها.. امتدّت كفّه يسحب ثوبها عن ساقيها.. دفعت يده:

ـ عيب.. ماذا ستفعل؟

ـ سنلعب لعبة المعرس والعروس مثل أمّك وكلّ الناس.

استسلمت.. كانت طريقته الناعمة بسحب ثوبها مثيرة وكأنّ

موجة دافئة تداعب ساقيها برمل الشاطئ، أكمل يُعرّيها، انكشف صدرها عن مُرتفعين صغيرين تُزيّنهما نجمتان ورديّتان، داعبهما فتأوّهتْ، عصرهما فشهقت، استثارته تأوّهاتها فسارع يتحرّر من ثيابه، لمع جسده الأبيض مزهوًّا بفحولةٍ مُستيقظة، عيناها الجريئتان تركّزان على المكشوف المُتحفّز. أشار إليه:

ـ شفتِ مثل هذا؟

لم يبد عليها الاستغراب ولم تكذب:

ـ كنت أشوف الصبيان وهم يبوّلون.

أردفت وهي تعتو بضحكتها:

ـ بسّ هذا غير.

أغراه إعجابها وشجّعه، انطرح بقربها وهو جذلان، التصق بها أكثر، أحسّ بحرارة جسدها وارتجافه، تحسّس وجهها، قبّلها قبلات سريعة ويده تكتشف الجسد المُشتعل.

صامتان.. حتى الحمام تكبّل هديله.

اعتلى بقاعها فثار نمل جسدها مُرسلاً هسيسه تنهّدات وآهات، حلّقت بها نشوة طاغية لم تحسّها حتى في توحّدها مع جسدها، ظلّت مسترخية ملتذّة حتى أحسّت بما انساب عليها لزجًا. فزعت وأخذت تتلمّس بللها. كان قد استلقى بجانبها وهو يلهث. نغزته بكوعها وصوتها محتدّ:

ـ ما هذا الدبق؟

اكتفى بردّ بارد:

ـ امسحيه.

تفقّدت حالها، سحبتْ غترته المُلقاة إلى جانبه ومسحت وهي تزُمّ وجهها مستنكرة الرائحة.

ارتدتْ ثيابها على عجل وقبل أن تفتح باب الغرفة لتخرج سألها وهو يغمز لها بعينه:

ـ ستأتين دائمًا.

لم تخجل:

ـ طبعًا.

كان وجهها مُفرطا بسعادته، وعيناها تشعّان ببريق المتعة ويَعِدُه بتكرار اللعبة.

انحدرت من السطح واعدة جسدها أن تريحه كلّما شنّ أسلحته. أرادت لهذا الأنس أن يستمرّ وما حسبت أنّ شهده سيصير علقمًا ترتشف مرارته طوال السنوات المقبلة.

* * *

اقتحام القلعة

اعتادت الصعود السرّي. . . واعتاد الجسد طعم المُداعبات ورائحتها. أحبّت حسين، حسبت أنّ هذه هي حدود المتعة، رضيت بكلّ ما تمنحها تلك اللحظات من سعادة ونشوة. . . حتى فاجأها في تلك القيلولة. . . .

لم يكتفِ بما يُؤنسها دون ألم ويؤنسه دون الإكمال. بدا فاقدًا لرقّته، عنيفًا وهو يحاول.

توجّست منه جاهلة بالذي ينويه. حاولت التّفلّت منه فازداد جنون رغبته. قاومت قليلاً ثم استكانت بعد أن انتشى جسدها والتهب.

فاجأها باندفاعته القويّة وهو يخترق الجدار ويقتحم باب قلعتها. كان الألم شديدًا جعلها تُطلق صرخة عالية قطعها سريعًا وهو يكمّم فمها بغترته واستمرّ في نزوحه حتى ارتعش وهدأ.

ارتمى لاهثًا وعرقه يتصبّب، تحاملت وجلست تتفقّد حالها. الألم يشقّها ولون الدم السائل يُفزعها.

شدّت شعرها.. لطمت خدّيها، ناحت، التفتت إليه، شدّت شعره المتناثر المُتعرّق، قرصت زنده قرصة أفرغت في لحمه نار ألمها:

ـ ماذا فعلت بي؟

أدرك مدى ألمها، لثم خدّيها وهمس:

ـ هكذا يتزوّجون.

بصوت مخنوق يُمطرُ غيظًا:

ـ عوّرتني يا كلب.

أشفق عليها، حضنها وبصوت آسف:

ـ هذا بس في أوّل مرّة، بعدين تستأنسين.

صرخت بوجعها:

ـ لا أريد هذي الوناسة، ولن أجيء بعد.

ضحك واثقًا:

ـ بسّ يبرد جرحك.. ستأتين.

(ماذا فعل بي؟..

لماذا نزل الدم؟..

ولماذا لم يُمتعني مثل كلّ يوم؟..

لن أصعد، لا أريد لذّة توجعني).

* * *

نزلت من السطح مستاءة حزينة، تمشي متباعدة الساقين. الوجع يفريها. والخوف من عواقب لا تدركها يُطوّح بكلّ ما كانت تمارسه من المُتع.

انبطحت على فراشها باكية، لم تُفكّر أن تنزع عنها الثوب المُلوّث بالدم. أذان العصر يعلن موعد الصلاة. دخلت أمّها لتصلّي معها ففوجئت بها مُلتوية تئنّ:

ـ صفيّة.. ما بكِ؟

حين حرّكتها لاحظت بقع الدم على ثوبها.

شهقت دون غضب:

ـ صفيّة!

فزعتْ.. أدركت أنّ أمّها ستكشف سرّها. قبل أن ينطق لسانها كانت أمّها تنحني تحضنها وتقبّلها وصوتها يزغرد:

ـ مبروك يا صفيّة بلغتِ والحمد لله.

أوجمتها فرحة أمّها، لماذا هي فرحانة؟ وماذا يعني أنّها بلغت؟ بكت وكادت تعترف لكن أمّها لم تُمهلها، فكرّرت تهنئتها وراحت تشرح لها ماذا يعني البلوغ.

ارتاحت:

(أمّي المسكينة غير دارية بأفعالي، الحمد لله.. سيبقى سرّي مكتومًا).

تلك الليلة رزحت بحريقها وتغافلت عن جسدها، خاصمته،

لم تشتهِ حسين ولم تفكّر به، كان ألمها قد سكن وأسكنها إلى نوم عميق.

مضى أسبوع هجرت فيه السطح. لكن حياجتها إليه دهمتها كثيرًا. حاولت أن تخرس نداء جسدها لكنّه جسد لا يرتوي ولا يشبع. كان حسين على حقّ:

(بسّ يبرد جرحك ستأتين).

ها هو الجرح قد برأ، وها هي الرغبة التي خمدت أسبوعًا تستيقظ أشدّ ممّا كانت. في تلك الظهيرة جدّدت طريقها إلى السطح، فتحت باب غرفته وفتحت لحسين باب قلعتها المُنتهكة.

* * *

حكاية الرّيش

تغيّرت صفيّة..

جسدها الذي كان يرتوي، منحها السكينة، فصارت أكثر هدوءًا، لم يعد نملها يعكّر صفوها ويستفزّها، لم تعد تلجأ إلى وسائلها القديمة لإخراسه، كان وجود حسين ملاذها الذي يرويها ويشبعها.

نشطت في طاعتها لأمّها ومساعدتها في أعمال البيت ورعاية هلال، لم يُلفت هذا التغيّر اهتمام أمّها لكنّ أباها لاحظ خاصّة وقد مضت أسابيع دون أن ينتصب أمامه لسانٌ يفتن عليها، ورغم ارتياحه فإنّ ارتيابًا بدأ ينغل في صدره:

(ما الذي غيّر البنت؟).

ذات ليلة أعلن لأمّها شكوكه فغضبت:

ـ زعلان لأنّ الله هداها؟ أم أنّ يدك تحكّك لضربها؟

فكّر قليلاً ثم:

ـ أخاف أنّكِ تغفلين عنها؟

ـ كيف؟ وهي طول النهار معي تساعدني، حتى في القايلة لا ترتاح، تغسل الثياب وتطلع السطح في هذا الحرّ لتنشرها.

مثل فأس دقّ في قمّة رأسه...

السطح... السطح.

سرح بذهنه... تذكّر ذلك المساء:

كانوا يجلسون في الحوش مُستمتعين بأكل الجراد، وكان هلال يدور بدرّاجته حولهم، ناداه أبوه ليأكل فرفض وقال لائعًا:

ـ كأنكم تأكلون زهيويّة[1].

تابع لعبه ثم جلس في حضن أخته كعادته يلعب بشعرها. استلّ منه شيئًا. كركر وقال:

ـ صفيّة في شعرك ريش.

ارتبكت وصرخت به:

ـ يالكذاب.. من وين يأتيني الريش؟

لم تلفت حكاية الريش اهتمام الأمّ. لكنّ الوسواس دهم أباها:

(صحيح.. من أين جاء الريش)؟!.

لعبت فئران الشكّ في صدره، فظلّ تلك الليلة يتقلّب، أقلق ثاجبة التي سألته بصوتها المعجون بنعاسه:

---

(١) زهيويّة: جمع زهيوي وهو الصرصور.

ـ ما بالك؟ هل تشكو من شيء؟

نهرها وهو يستدير إلى الجهة الأخرى:

ـ نامي واتركيني بهمّي.

لم يشأ أن يخبرها بالذي يشغله ويتصارع في داخله، أراد أن لا تُفسد عليه خطّته التي بدأ يرسم لها، يعرفها لا تكتم سرًّا وقد تُسرّبُ وسواسه إلى صفيّة فتحتاط ويفشل في اكتشاف الحقيقة.

* * *

في غفلة من البنت وأمّها صعد إلى السطح. رأى الصندوق بجانب الجدار فحارَ: (من الذي نقله من مكانه؟).

صعد عليه وأطلّ برأسه. التقطت عيناه تفاصيل سطح الحمام ثم انحدر سريعًا وقد انتابته رجفة عاتية خفق لها قلبه:

(هل تستغفلنا بنت الشياطين؟).

قرّر أن يبدأ المراقبة.

ذات قيلولة استعدّ إلى الخروج ممّا أثار استغراب ثاجبة:

ـ ليس من عادتك أن تخرج في هذا الوقت!.

ابتسم مُرغمًا:

ـ هل تصدّقين؟ لقد نسيت أنّني على موعد مع زبائن سيأتون من (فيلكا)[1] ليستلموا حاجيّاتهم.

(١) فيلكا: جزيرة وهي أكبر جزر الكويت.

استاءت:

ـ في القوايل؟ وقت راحة الناس؟

ـ الأمر لله.. هذا الوقت الذي يناسبهم، وأنا وعدتهم.

بهذه الحُجّة سيبثّ الأمان في قلبها وقلب ابنتها وسيعرف بعدها حكاية السطح.

* * *

خرج...

لم ينس أن يدسّ المفتاح في جيبه، قلبه مهموم وفكره يترجّح بين مُصدّق لظنونه ومُكذّب لها. ينفعل ويزفر حين يتصوّر أنّها تجرؤ على فعل كهذا:

(هل أظلمها بظنوني؟).

يتعوّذ من الشيطان مُتمنّيًا أن يكون مُخطئًا.

اليوم سيكون الحدّ الفاصل.. فإن خابت ظنونه فستسكن ريحه ويخمد جمره. لكن ماذا لو رأى فعلها بأمّ عينيه؟! كيف سيتصرّف؟ هل يقتلها أم يقتل ابن السمّاك الذي شكّ في أنّه شريكها.

هدير في رأسه وهو يقطع الطرق هائمًا على وجهه يريد للوقت أن يمضي وينام أهل البيت. الشمس حارّة لكن جمره أكثر حرارة ولهيب أفكاره أشدّ من نار التنّور.

دخل إلى البيت... سكون وهدوء كأنّ الذين فيه موتى. خفيف الخطوة أطلّ من شبّاك غرفته. ثاجبة نائمة وهلال يحتلّ

مكانه في الفراش. انتقل إلى غرفة صفيّة.. فراشها فارغ ورائحة (كلونيا أمّ بنت) تفوح. تراجفت أوصاله وجفّ ريقه وتصبّب عرقه.

دفعته رياحه إلى درج السطح، ارتقاه بلحظة ودبيك قلبه لا يهدأ، تمنّى أن يراها تنشر الثياب، أو جالسة تجدّل شعرها الذي اعتادت أن تدهنه بزيت (الناريل)[1] أو غلبها النعاس فأغفت فوق الحصير. لكن السطح ساكنٌ خالٍ من أيّ نسمة غير روائح الزفر، نظر إلى الصندوق واندفع إليه.. صعد.. أطلّ على سطح السمّاك.. الهدوء يسود المكان.. ارتاح قلبه وصدّق أنّه مُخطئ بظنونه، لكنّه قبل أن ينسلّ مُنحدرًا فوجئ بضحكاتٍ صاخبة تتسرّب من الغرفة، التقط ضحكة صفيّة التي لا يتوه عنها. هدرت به عاصفة الجنون.

قفز السور وأسرع نحو الغرفة.. أصاخ سمعه فثقبت أذنه وشوشات وضحكات. لم يتمالك صبره. دفع الباب بقدمه دفعة قويّة و...

فاجأه المشهد وروّعه...

صفيّة وابن السمّاك غارقان وهما عاريان في روضهما المُحرّم.. تفجّر بركانه وشهق شهقة عالية فانتفضا مثل عصفورين دهمهما وحش غريب. التصق حسين بجدار الغرفة مذهولاً يرتعش كسعفة لاطمتها الريح بينما صفيّة مفلوجة من الخوف بعد أن سترت جسدها بشرشف وسخ.

---

(١) دهن الناريل: زيت جوز الهند.

انقضّ عليها بعقاله يجلد جسدها، وبأسنانه يقضم لحمها وهي مُنطوية على نفسها لا تصرخ ولا تتحرّك. كلّ شيء فيها أصيبَ بالشلل حتى لسانها. حاول حسين الذي ارتدى دشداشته على عجل أن يوقف هجومه:

ـ عمّي الله يخلّيك. أنا مستعدّ أن أتزوّجها.

استدار إليه يُشبعه جلدًا بالعقال وينعق:

ـ (عَمَتْ عينك).. بعد أن سوّيتها يا (السرسري)[1]. غصبًا عنك ستتزوّجها وتستر عليها.

بصوته المُتدفقة رعشاته:

ـ أوعدك عمّي. اليوم أكلّم أبوي وإنشالله يمرّ عليك باكر.

استدار إلى صفيّة:

ـ يالفاجرة.. قومي البسي ثيابك وإن شاء الله ألبّسك كفنك.

* * *

غادرا السطح. كان يُدحرجها أمامه وهي تنحدر قارعة بداخلها طبول الخوف تزفّها إلى حيث لا تتوقّع شكل العقاب الذي ستناله.

وصلا إلى غرفتها، زجّ بها بعنف وأغلق الباب. لم ينادِ أمّها كي لا تحول بينه وبين تأديبها. عاد وبيده قصمول السعف ذو الأشواك الحادّة وانهال به على جسدها، وكلّما ساطها علق الشوك بثوبها حتى تمزّق وأتاح للقصمول ألّا يرحم العاري من جسدها.

(١) السرسري: الإنسان الذي يمارس الموبقات.

يلهث.. ويعرق، يشتمها بكلّ بذيء وأنفاسه تضيق.

خرج إلى الحوش وقدماه عاجزتان عن حمله، يترنّح (طوفة تصدّه وطوفة تردّه) حتى وصل إلى غرفته. اقترب من الفراش، لم يصرخ حتى لا يوقظ هلال، هزّها وصوته خفيضًا:

ـ ثاجبو قومي.. (نومة أهل الكهف إن شالله).

تثاقلت باستيقاظها فهزّها بقوّة. قبل أن تفتح فمها أطبقت يده عليه. شدّها وهي في حيرة من أمره حتى وصلا إلى غرفة صفيّة.

مشهدٌ لا يحتاج إلى تفسير.. بالتأكيد فعلت صفيّة فعلة فظيعة أدّت إلى إدماء جسدها بهذه الصورة. اندفعت إلى ابنتها:

ـ صفيّووه!! ماذا فعلتِ؟

قبل أن تقترب منها أمسك بها وهو ينفخ غضبًا:

ـ لا تمسكيها.. ابنتك صارت نجسة.

فاغرة ذهولها نقلت بصرها بينه وبين صفيّة فوقّر عليها لوعة السؤال:

ـ خلاص.. بنتك سوّتها وحطّت راسي بالطين.

اندفعت نحوها، أمسكت بشعرها تشدّه وصفيّة تُقبّل قدميها وتسترحمها بصوت شرخه الخوف:

ـ يُمّه.. لا تخلّينه يذبحني، والله أتوب.

رفستها بعيدًا. اقتربت من زوجها وهي تُولول:

ـ علّمني إشصاير؟

حنى رأسه ولهاثه يُضعفُ لسانه:

ـ شفتها وهي تزني مع ولد السمّاك في غرفة سطحهم.

شقّت جيب ثوبها، لطمت على رأسها بكلتا يديها:

ـ الله وأكبر عليك يا الخسيسة، وصلت بك الجراءة إلى هذا الحدّ؟

أبوها بصوت مفجوع لا يخلو من القهر:

ـ بنتك استغفلتنا، كان قلبي يحسّ أنّ وراها مصيبة.

خرج مُسرعًا وعاد وبيده المقصّ، سحب شعرها المُبعثر وأخذ يحشّ به ويُلقي بالخصلات على الأرض، وحين اكتفى جمع الخصلات خارج الغرفة. صبّ عليها الكاز وشخط أعوادًا من الكبريت ففاحت رائحة الحريق.

لم تُبال ثاجبة بابنتها المُمزّقة. لحقت به. كان مُنطرحًا على الفراش. أصفر الوجه لا يكاد يتنفّس. أحضرت له كوب الماء، دعكت صدره وهو يهذي بكلام لا تفهم منه شيئًا.

استيقظ هلال.. فوجئ بمنظر أبيه المتهالك ولون أمّه المخطوف، سأل والسؤال يتوه. غادر الفراش وانفلت إلى غرفة صفيّة. رآها غارقة بدمها. هوى بقربها باكيًا مستفسرًا فخرجت الكلمات مُتقطّعة من ثغرها الجافّ:

ـ أبوك ضربني بقصمول السّعف.

ـ وليش ضربك؟

أخفت رأسها بين ركبتيها، نشيجها يبتلع الكلمات لكنّه التقط جُملتها:

ـ ما أقدر أقول لك.

هاجت شفقته على أخته وحقده على أبيه. ركض ليخرج فتوسّله صوتها:

ـ هلال.. اسقني ماء.

عبّت منه كثيرًا وأمسكت بدشداشته:

ـ هلال.. أبوك ما ظلمني، أنا أستأهل.

لم يفهم وخرج بحيْرته إلى غرفة أبيه صائحًا بأمّه:

ـ الحقي صفيّة كلّها دم.

للمرّة الأولى لم يرَ أمّه تهلع أو تهتمّ. زعقت به:

ـ إن شالله تشرب الدمّ والسمّ، ما عليك منها.

شدّ طرف ثوبها وبإصرار:

ـ شلون ما عليّ هذي أختي.

أبوه الواهن في فراشه صاح بأعلى صوته:

ـ (خَوى جنبك) هذي فاسدة وتستاهل الموت.

قبل أن ينطق زفر عليه ريحًا اقتلعتهُ من الغرفة.

ركض ثانية إلى أخته، رآها مُنحنية تشهق بعبراتها وهي تلملم بعض خصلات من شعرها، التي لم تحترق وتجمعها في خرقة حمراء.

تذكّر تلك الخرقة التي وجدها ذات يوم منشورة بالحمّام فأخذها وربطها بعصا وصار يلوّح بها وينشد:

(علمي.. علمي.. ما أحلاه).

حين رأته أمّه سارعت وسحبتها منه ورآها تمسك بصفيّة وتقرص أذنها وهي تقول كلامًا لا يسمعه.

كانت الأمّ تعنّف ابنتها بصوت خفيض:

ـ احفظي خرق عادتك الشهريّة بعيدًا عن أخيكِ.

* * *

في الليل رأت ثاجبة عيسى ـ ولأوّل مرّة ـ يبكي بحرقة ويلطم رأسه، ولأوّل مرّة بعد وجبة عقاب لصفيّة تُشفق عليه ولا تُعاتبه، الرجل مهزوم والعار الذي كان يخاف منه لحق به وكسر نفسه.

مسحتْ على رأسه وهي تواسيه. قال وهو يفرُكُ كفّيه:

ـ بنتك ضيّعت نفسها وضيّعتنا.

هي في وادٍ آخر كأنّها لا تسمعه:

ـ أنا قلت ما يصير عزّاب يسكنون بين الأوادم.

نظر إليها هازئًا:

ـ أوادم؟ الأوادم لا يهملون بناتهم. لا فاد معها ضرب، ولا

صلب، ولا حرق، وكنتِ تدافعين عنها، هذه نتيجة دلالك الماصخ.

بلهجة مشحونة بالخزي:

ـ سوّد الله وجهك يا صفيووه.

التفتت إليه:

ـ ماذا سنفعل؟ الفأس طاحت بالرأس.

لا يدري أكان يُطمئنها أو يُطمئن نفسه:

ـ الولد قال مستعدّ أن يتزوّجها وباكر سيأتيني أبوه.

خبطتْ على صدرها وقد تعكّر صوتها:

ـ تزوّج بنتك ولد السمّاك؟ هذا شيعي؟

ـ شيعي ولاّ يهودي.. لازم نستر على البنت.

جاء افتراضها لطمة له:

ـ وإذا رفض أبوه؟

ردّ وهو يصكّ على أسنانه:

ـ ذيك الساعة ما لها غير الموت.

ـ وماذا نقول للناس؟

ـ ما لنا شغل بالناس وما لازم يدرون.

ـ وماذا تنوي؟

ـ أحبسها حتى تموت من الجوع.

* * *

لم يذهب إلى محلّه ذلك اليوم.. كان بانتظار أن يدقّ السمّاك بابه ليُصلح ما أفسده ولده. لكنّ انتظاره طال، أعصابه مُتوتّرة.. أفكاره المُضطربة تتعارك داخل عقله:

(هل خاف أن يخبر أباه؟ آآه يا ابن الكلب.. تريد أن تفلت بفعلتك، أنا الذي سأخبر أباك).

الباب بجانب الباب.. لا يحتاج الأمر لمشي مسافة تكون كفيلة بإخماد جذوة غضبه، غليان صدره ينفث أبخرته الحارّة:

(لعنة الله عليك يا صفيّة. آخرتها أنا أروح لابن السمّاك أخطبه لك! أيّ ذلّ أكبر من هذا؟ يمكن يكون قتلك ودخولي إلى السجن أرحم بكثير ممّا أنا فيه).

وقف أمام الباب غائصًا في عرق مذلّته.. كفّه تتردّد في الطرق على الباب.. كان في إبطائه يترنّح في حيرته، وقد أبت عزّة نفسه أن يقوم بما جاء من أجله لكن ورطته تُجبره أن يشدّ لجام العزّة (المذلّة ولا العار).

أقدم ورفع كفًّا مرتعشة.. أمسك برمّانة الباب يفركها بكلّ ما تفركه به روحه المُنشطرة. قبل أن يدقّ دقّته الأولى الخجولة، دهمه خاطر غريب:

(هل فرّ السمّاك وابنه؟).

دفعه هذا الخاطر إلى أن يصفع الباب بعنف وينتظر.

سمع الخطوة مُتمهّلة في قدومها ثم انفرج الباب وبدت قامة أبو حسين بكرش مكوّرة كالبطّيخة، وكان وجهه المستدير كقرص الخبز الطازج، ناصعًا كأنّه مجلوٌّ بماء الورد، عيناه جاحظتان بلونهما العسليّ الفاتح مكلّلتان بحاجبين كثّين. حين رأى عيسى اتّسعت ابتسامة شفتيه الورديّتين وانطلق صوته مُنتشيًا بالفرح:

ـ يا هلا بالجار.. زارتنا البركة.. تفضّل.

أوسع له فتحة الباب وتنحّى جانبًا وهو يكرّر كلمات الترحيب.

قدما عيسى لا تسعفانه لكنّه انتصر عليهما ودخل بخطوة سريعة كأنّه يفرّ من شيء يتبعه. جلس على أوّل مطرح صادفه.

قبل أن يجلس أبو حسين قال بودّ شديد:

ـ شاي؟ قهوة؟

عيسى دون أن يرفع عينيه:

ـ ما يحتاج.

حلف أبو حسين:

ـ ما يصير.. هذي أوّل مرّة تزورني وتشرّف بيتي.

أسرع خارجًا وعاد يحمل كأسًا من شراب (الفيمتو).

جلس أبو حسين متربّعًا، هاشًّا باشًّا يردّد كلمات الترحيب الودودة.

هذا الودّ جعله يبتلع غضبه مُجبرًا على أن يستخدم لياقة الكلام:

ـ شوف يا بو حسين. أنا جئتك في موضوع يخصّ بنتي وولدك حسين.

تلبّد وجه الرجل:

ـ خير إنشالله؟

ـ ليس خير.. لكن إحنا جيران ونقدر أن نخلّيه خير.

امتطى عيسى شجاعته، ابتلع ريقًا مُرًّا وقد أدرك أنّ الرجل لم يعلم بالأمر بعد ممّا سيجعل مُهمّته صعبة:

(كيف أواجه الرجل بعار ابنتي؟ حسبي الله عليك يا صفيّووه):

ـ اسمع يا بو حسين.. تعرف طيش الشباب، إحنا جيران.. الطوفة بالطوفة وهذا سهّل الفرصة لابنتي وولدك أن يلتقيا.. أمس شفتهم بعيني في غرفة الحمام يفعلان الفاحشة. وحسين أقرّ بأنّه اعتدى على البنت. وألحين لازم ولدك يصلح غلطته.

فوجئ أبو حسين، بحلق عينيه وبدا بؤبؤاهما مثل رصاصتين، تبدّلت لهجة الودّ بالصراخ:

ـ غلطته ولّا غلطة غيره؟ تحسبني ما أدري؟ كلّ الفريج يعرف عمايل بنتك.

لم يجادله عيسى، الرجل يدسّ المسمار في عينيه، اضطرّ أن يحتمل:

ـ أدري أنّ بنتي شيطانة لكنّها ما سوّت اللي سوّاه ولدك فيها.

تساءل أبو حسين:

ـ والمطلوب؟ أذبح ولدي؟

بهدوء مُغتصب:

ـ لا تذبح ولدك ولا أذبح بنتي، المطلوب نستر على البنت.

هبّ أبو حسين واقفًا. حطّ كفّيه على خاصرتيه وأخذ يهتزّ وبصوت لا يخلو من سخرية:

ـ والله خوش[1]. تريد أن يتزوّج ولدي بنتك المغيوبة.

شابت وجه عيسى ألوانٌ دكناء، وتمرّغ صوته بطعم حقده المكتوم:

ـ ولدك هو الذي عاب ابنتي والمفروض أن يستر عليها.

ـ ولدي شيعي ولا يمكن أن يتزوّج سنّيّة.

أراد لأيّ كلمة سوء أن تذوب في فمه:

ـ وما الفرق؟ كلّنا مسلمين.

هزئ أبو حسين:

ـ الفرق عندكم وعندنا وأنت تعرف هذا الشيء.

كظم عيسى غضبه، وبصوت ذليل:

ـ يا أخي خلّينا إحنا نبدأ ونكسر هالفروق.

---

(١) خوش: كلمة تعني: زين.

ـ ما شاء الله! لو كان العكس وولدك هو الذي اعتدى على بنتي لما قبلت أن تزوّجه شيعيّة، على من تضحك يا عيسى؟

أدرك أن لا فائدة من الكلام. ما أغضبه إلّا إهدار ماء وجهه وكرامته. نفض نفسه وقام مُتّجهًا إلى الباب وصوت أبو حسين المُتذمّر يلاحقه:

ـ روح اقتلها واغسل عارك أحسن لك.

و...

صفق الباب صفقة قويّة.

حين دخل إلى البيت باربداد وجهه أدركت ثاجبة أنّه فشل في مهمّته. قالت بصوت ذبحه الألم:

ـ لو كان سنّي لـ...

قاطعها بهزّة من يده:

ـ بس واللي يعافيكِ لا أتحمّل أيّ كلام منكِ.

* * *

في اليوم التالي دخل عيسى مكتب الدلّال، وقف الرجل ليرحّب به لكنّه لم يردّ تحيّته وفاجأه ثائرًا:

ـ ما كان يجب أن تؤجّر البيت لعزّاب.

بهدوء لا يتناسب وثورة عيسى:

ـ حلف لي الرجل أنّ زوجته وبناته سيلحقن به.

خبط على الطاولة:

ـ وأنت صدّقته! ثمان شهور مرّت وما شفنا حريم، لقد ضحك عليك الرجل.

استاء الدلّال:

ـ لستُ جاهلاً يا عيسى حتى يضحك عليّ، ثم لماذا أنت ثائر؟ هل آذوكم بشيء؟

ورّطه السؤال وكان لا بدّ من جواب:

ـ ولده آذانا بوسخ حمامه واحتملناه، لكن أن يتلصّص على حريمي وهنّ ينشرن الثياب فهذا فعل لا ينسكت عليه.

نفض الدلّال يده مُتعوّذًا:

ـ أعوذ بالله.. الحقّ معك. هذا لا يجوز.

ارتاح لتأكيده على رأيه:

ـ ها أنت قلت.

حين لم يردّ الدلّال قال عيسى:

ـ عليك أن تتصرّف الآن.

هدّأه:

ـ هوّن عليك يا بو هلال، وعدًا منّي لن يبقى في البيت ولا يوم.

* * *

خرج من مكتب الدلّال محنيّ الرأس... لا رغبة له أن يرى وجهًا ولا أن يردّ تحيّة. يخامره الشعور بأنّ كلّ الناس تدري بعاره وكأنّهم يلمحون وجه ابنته مرسومًا على وجهه. يتحسّر ويبتلع مرارة الغصّات. كذب على الدلّال واتّهم الولد بالتلصّص، وهل يستطيع غير أن يكذب ليستر أمره؟

فرغ البيت ثانية، ارتاح قلب أبو هلال، لكن باله لم يرتح ولم يهدأ. ظلّت الوساوس تتناتشه طوال الأسبوعين اللذين انتظر بهما حتى تخفّ جراح صفيّة، ويستعيد هو عافيته التي أوهنتها فعلتها. لم يذهب إلى عمله. تفرّغ لمراقبة الحوش وكلّ حركة تدبّ فيه، كان يخشى أن تغافله وتهرب. حتى إنّه منع هلال من الدخول إليها ونقل فراشه إلى غرفة الجلوس.

لم يقترب من غرفتها ولم يسمح لها أن تجلس معهم أو تأكل وإيّاهم. قال لأمّها:

ـ لا أريد أن أرى وجهها أو أسمع صوتها حتى أنفّذ أمري بها.

ظلّت صفيّة في غرفتها وحيدة ممْحُوّة من أرجاء البيت.

* * *

أربعون يومًا

قرّر أبوها أن تموت.. أراد أن يُطفئ النار المُتمرّدة في جسدها ويئدَ لمعة البرق في عينيها. وهي مُتلوّعة، همّها يطفح من داخلها، هل تستطيع أن تجوع أربعين يومًا؟

(أيّ قلب يسكن صدر أبي وأيّ قسوة؟).

حرّم على أمّها أن تدخل غرفتها إلّا لتقدّم لها وجباتها أو ترافقها إلى الحمّام وتُعيدها لتقفل الباب بالمفتاح وهو يقف بالحوش يراقبها، لكن قلب الأمّ رغم غضبه يحنّ عليها، حين تدخل معها إلى الحمّام تنهمر عليها بحنانها، وتُملّح وجهها بدموعها، وطالما عاتبتها على ما فعلت وأسفت لحالها ولكنّها لم تستطع أن تكسر أمر أبيها.

حتى هلال المُتعلّقة به كلّ جوارحها حرّم عليه أن يدخل إليها، فكان ينتهز الفرصة أثناء صلاة أبيها ويطلّ عليها من الشبّاك. يناديها بصوت حزين شغوف، وكانت رغم انتكاستها تقترب من الشبّاك ومن بين حواجزه تتعانق أيديهما ويقبّل أحدهما الآخر. وفي كلّ

مرّة يكرّر عليها السؤال:

ـ صفيّة ماذا فعلتِ؟

كانت تبتلع سؤاله الحارّ وتخجل أن تبوح، لا تريد أن تعذّبه وتسقيه مُرًّا وهو بعد صغير.

* * *

في صبيحة يوم الجمعه خرج أبوها إلى الحوش بعد صلاة الفجر وهو يُسمل ويردّد (أصبحنا وأصبح الملك لله).

كانت ثاجبة ترصّ أكواب الفطور والصحون على السفرة، التفتت إليه:

ـ الريوق حاضر تفضّل.

رشح صوته أمرًا:

ـ قبل الريوق روحي هاتي صفيّة.

فغرت فاهًا مستغربة لكنّها لم تجرؤ أن تسأل، سارت بخطى بقيلة وصوته يلاحقها:

ـ خلّيها تغطّي وجهها لا أطيق أن أراه.

عادت وصفيّة وراءها تسحب قدميها الثقيلتين وكأنّهما مربوطتان بأكياس من الإسمنت. وقفت على بعد مسافة منه محنيةً رأسها سمعته يقول:

ـ لعنك الله في هذا اليوم الكريم.

اقترب منها وهو يصدّ بوجهه وأمرها بصوت يفوح كراهية:

ـ اتبعيني.

أمّها سألت قبل أن تتحرّكا:

ـ وين يا عيسى؟ اصبر اتركها تأكل وجبتها.

صرخ بها:

ـ ما لها أكل غير السمّ الحارّ.

لم تكن صفيّة تعرف ما الذي ينتظرها. نظرت لأمّها تستشفّ معنًى لأمر أبيها لكنّ الأمّ ظلّت صامتة لا تُشفي غليل ابنتها. تضُمّ ذراعيها إلى صدرها وتبكي بكاء العاجز ووجهها يقطر صفرة.

اقتربتْ ثاجبة منه وصوتها يشجو بحزنه:

ـ ألا تغيّر رأيك يا أبو هلال؟

لم يعرها اهتمامًا. دفع بصفيّة أمامه مُتّجهًا إلى درج السطح. كانت كبهيمة خرساء لا تعرف إلى أين تمضي. تلتفتُ نحو أمّها الواجمة في وقفتها وهلال يلتصق بها ويبكي بصوت مسموع. وصفيّة تستغرب موقف أمّها:

(لماذا لا تبادر كعادتها وتحاول تخليصها؟ هل أغلقت أبواب رحمتها دونها لبشاعة فعلتها؟ أم أنّها تخشى ردع أبيها كما هي تخشاه في لحظتها!؟).

حين وصلا منتصف الدرج لحق بهما هلال. أمسك بكفّ أبيه يسأله ببراءة:

ـ ماذا ستفعل بأختي؟

لم يرحم طفولته.. دفعه وهو ينهاه:

ـ لا تقلْ أختي. انزل وإلّا حبستك معها.

صرخ هلال:

ـ احبسني.

ركله فتهاوى.

بقدمين مُتعثّرتين تصعد الدرجات وذراع أبيها تضغط على ذراعها كالكلّابتين حتى وصلا إلى غرفة السطح. فتح بابها الذي أصدر صريرًا نائحًا كأنّه يسترحم أباها أو يعترض عليه. دفعها إلى الداخل، وقبل أن يُغلق الباب فحّ بصوته:

ـ هذا عقابك الأوّل، ستجوعين أربعين يومًا، وإذا لم تموتي فسيكون هناك عقاب آخر أشدّ.

أغلق الباب بالمفتاح...

انغلق قلبها المليء بالخوف...

غاب عنها ضوء النهار...

لم يكن سوى خيط رفيع من النور يأتي من تحت الباب الخشبيّ المتآكل.

* * *

سقطتْ في العتمة المُتشبّعة برائحة الفراغ المهجور، كانت كمن يوضع في صندوق تبيتُ فيه رائحة خشب قديم مُبلّل بالماء ليس فيه ولو شقٌّ صغير يتسرّب منه النور والهواء.

هي الآن سجينة... منزوعة من قلب الحوش إلى حلكة الظلمة، غرفة ضيّقة وبيت خلاء بلا باب تفوح منه عطونة الفضلات القديمة التي تيبّست في داخله. الأرض الإسمنتيّة خشنة. ليس سوى حصير قديم ومخدّة يطلّ من فجواتها القطن. القطن المُلبّد المصفرّ.

الجدران تهالك بعض جصّها. هنالك في أحد الأطراف مسمار وحيد صدئ، والسقف العالي تتهدّل منه خيوط بيوت العناكب الواهية المهجورة. فلا حياة في هذا القفر.

وحدها تعافر الصمت والظلام والصبر غير المُحتمل، تلوك أنياب الليل في لحم سهادها، ليس سوى خيالات مُخيفة تتمثّل في حيوان ضخم كبير الفم يحاول أن يلتهمها. كانت تصطاد بعض الأماني الضالّة علّها تمنحها صبرًا لكنّها هي الأخرى تتطاير كالشظايا البارقات وترتمي على الأرض وتنطفئ.

وحدها ستبقى...

أربعون يومًا تجوع فيها وتعطش حتى تفارق روحها جسدها.

(هل حقًّا ستكون الأربعون يومًا قادرة على نزع روحها وفناء جسدها؟ كيف سيذوب لحمه وشحمه؟ كيف لهذا الجسد الصهول أن يموت؟ وكيف سيحتمل حرمانه من المتعة؟).

* * *

يُطلّ خيط من نور الشمس عليها حين يفتح أبوها الباب ليقذف لها بفردة التمرة، فتتمنّى لو تمسك بهذا الخيط وتزرعه شمسًا تُفتّت

العتمة. وفي المساء حين يدفع لها بفنجان الماء يُضيء السراج الذي يحمله ظُلمتَها، وهي صابرة. يُفاجئها أمل خائب أنّ أباها سيحرّرها لكثرة ما تتوسّل إليه أمّها وتطلق أدعيتها إلى الله.

لم تعرف الشوق لأمّها ولهلال كما عرفته هذه المرّة، لكنّ أباها لا يسمح لهما برؤيتها. كانا في غفلة منه يقفان خلف الباب، أمّها تبثّها حنانها الممزوج بدموعها فتتمنّى لو تجمعها وتشربها فجسدها محتاج لملحها. يصلها صوتها بإصرار:

ـ اصبري يا صفيّة ترى (الصبر مُرّ ما يشربه إلّا الحُرّ).

أخوها يُوَنْوِنُ ببراءته:

ـ صفيّة ودّي أجيب لك أكل. أنا أحبّك، إن شالله ما تموتين.

تلتهم حزنهما وحنانهما فيسريان في جسدها سريان الماء المحرومة منه.

رغم السجن والجوع تتفتّح في جسدها آلاف الشهوات فلا تموت... روحها العاشقة للدنيا لا تموت... جسدها المُزهر الثائر رفض أن يموت... كان الوقت يمرّ طويلاً حالكًا تشتهي لو ترى قرص الشمس ووجه القمر، تشتهي أن تسمع صوت عصفور أو هديل حمامة، تشتهي أن تسمع صخب الشارع وبذاءات صبيانه. تشتهي لو تطير إلى غرفة حسين وتنام بين يديه.

تبتلع كلّ هذه الأشواق، تنام عليها وتصحو، تهرش بها حتى الإدماء.

كان لا بدّ من وسيلة يقصر معها الوقت المُمِلّ. صارت تتسلّى

بعَدّ أصابع يديها الجافّتين وقدميها الخشنتين مئات المرّات، وإذا سئمت من الأصابع عدّت أسنانها وتسلّت بفكّ جدائل شعرها القصيرة بعد أن حشّها أبوها ثم تعود وتربطها، حتى الشعر النابت على ساقيها وتحت إبطيها كانت تحاول أن تعدّه.

كانت الريح تعوي في الخارج وأمعاؤها تعوي من الجوع الذي يعلك بأحشائها. لم تكن التمرة تكفي، خلعت المسمار الصدئ وصارت تقشر جصَّ الجدار وتأكله، كانت تأكل كلّ شيء، قذى عينيها، حشوات أنفها التي تتركها على لسانها حتى تذوب.

كان النمل يتسلّل من تحت الباب ويتجمّع على بقايا النوى، هذا النمل الذي كانت تكرهه ولا تجد له فائدة صار جزءًا من طعامها. ولم يكن فنجان الماء يسدّ رمقها فصارت تلحس دموعها المالحة واضطرت أكثر من مرّة أن تشرب بعض بولها الحامض.

حين كثر النمل فكّرتْ بلعبة تُسلّيها، فعقدت صداقة معه. لم تعد تأكله. صارت تراقب أسرابه وهي تسري خطوطًا مستقيمة ومتعرّجة، تتقارب وتتلاصق أفواهها، هل يتباوسون أم يتحادثون؟ ماذا تقول كلّ نملة لأختها؟ كانت أمّها قد حكت لها قصّة سليمان والنمل الذي كان يُكلّمه.

(هل أكلّمه فيكلّمني؟).

أطلقتْ على كلّ واحدة اسمًا. خُيّل إليها أنّ كلّ نملة صارت تعرف اسمها، فحين تناديها تقترب منها، تقف ولا تتحرّك، كانت تتشاجى معها وتحكي لها كلّ ما حفظته من حكايات أمّها، وحين تنتهي تقول لها (خلاص روحي) فتبتعد.

كانت تقطع نهارها الجوعان وليلها الظمآن بهذه الحكايات وتقتنع أنّ النمل يسمعها، تصفّق له فيتراكض كالخائف، تصفّر له فيستكين وكأنّه يعرف أنّها هدنة بينها وبينه، تغنّي له فتراه يتراقص. ثم بدأت تمارس معه لعبة الصفوف، تصُفُّ النوى مربّعات أو مستطيلات أو دوائر وعلى الأشكال تأتي وتتجمّع وتصير الأشكال أكثر جمالاً. أحبّها النمل رغم أنّها لا تقدّم له سوى مذاق التمر على النوى فقد كانت تلحسها حتى آخرها. وحين تتسلّل نملة خارج الغرفة تحسدها وتتمنّى لو تصير نملة.

* * *

لم يكن جوع الأحشاء وحده الذي ينغّص عليها، فالجسد بدأ يُجاهر برغباته، والشهوات كالزواحف لا تهدأ، تلدغها كشوكات العقارب وسُمّها يوقظ الراقد من خموله ويبدأ الحكاك، يصير أشبه بالحصى الخشنة، فتحكّ وتصرخ الجمرات في منقارها المتوحّش. شهوة كالهدير تجرفها إلى حيث كان الانطفاء في غرفة حسين.. تستعيد تلك اللحظات فيمور عالم الغرفة بشهواتها، تدور فيها مثل بقرة هائجة، تتعرّى، تحضن الحائط مُتخيّله أنّه رجل، تلتصق به وتتركه ينام على جسدها الذي يصارع الرغبة المستغيثة. تحتكّ به أكثر حتى تصل روضة الراحة وترتمي دائخة من النشوة. كانت تُفرط في إرهاق جسدها، تسحقه بإسمنت الأرض الخشن ليُخرس فورة الهياج، تمطّ ثدييها، تصل بلسانها إلى الحلمتين، تلحسهما بالتناوب مثل كلبة تلغ الماء. تمدّ كفّها.. تحرث منطقة النار الملتهبة فتصحو نغمشات الديدان وتثير اهتياجًا وكأنّها تحكّ جرحًا مقشورًا. تفُحّ وتلهث حتى تصل نشوتها وتتأوّه من اللذّة. عندئذ

يسري الخدر في عروقها وتنطفئ النار. تكثر عليها الأحلام لكنّها لا تدري هل أحلام نوم أم يقظة.

* * *

المكان غارق في السكون يعوم فيه مزاج ظلمة لا يتقلّب. تحاول أن تنام، تتّكئ على الجدار، تثرثر لنفسها لتجلب النعاس لكنّه يستعصي ويُفسح مزيدًا من وقت اليقظة المُملّة. وقتٌ رتيب يتساوى فيه الليل والنهار وهي حشرة مدفونة في غار أضيق من سُمّ الإبرة ولا تدري كم مضى من أيّام سجنها.

هل بمقدورها أن تصبر أربعين يومًا وهي مقذوفة هكذا لجدرانٍ تُسئمها وترشرش عليها أنفاسها الكريهة؟

كان الجوع ينهش بأحشائها وهي بشغف تنتظر وجبتها الكفاف. وبقدر كراهيتها لسجنها كان خوفها من الموت الذي كانت تُقاومه بكلّ عزيمتها المُجهضة. تتحدّاه وتحارب الجوع والعطش والملل والظلام وتحلم بعودتها إلى الدنيا. لن تسمح لأبيها الجبّار أن يهلكها، ستتحدّى كلّ أشكال العقاب، التي هدّدها بها ولن تموت.

* * *

يوم الحرّيّة

لم تصدّق أنّ نهار حرّيّتها قد فُضّ ستاره إلّا حين أشرع أبوها باب الغرفة. سطع ضوء النهار حادًّا فدهم عينيها فلم تقوَ على مجابهته. قرفصتْ لائذة بالزاوية، حسبت أنّه جاء ليذبحها أو يسقيها السّمّ، لم تتخيّل أنّه يوم الإفراج عنها إلّا حين صرخ بصوتٍ ناريّ يأمرها أن تخرج وهو يتأسّف أنّها لم تمت:

ـ لعنك الله.. أربعون يومًا لم تأخذ روحك.

دندن قلبها:

(إذًا.. انتهى سجني).

أوفى أبوها القاسي بالمدّة التي حدّدها ولم يتجاوزها وكانت تظنّ ذلك. لم تنظر إلى وجهه خشية أن يكتشف فرحها المفاجئ ويغلق عليها الباب ثانية. تحاشت أن تصطدم به وهي تنفلت نحو الدرجات تتعثّر بخطوتها وتكاد تسقط لكنّها تماسكت ورجفة قلبها تسبقها لترى أمّها وهلال الذي ما إن رآها حتى انفجر باكيًا وأسرع يتشبّث بأسمالها وهو يردّد اسمها ويُمطرها بضحكاته وقبلاته.

الأمّ المُنتظرة كامدة مثل شمعة نائصة استعادت روحها النور فاندفعت إليها. اختطفتها إلى صدرها، صكّت عليها بذراعيها الوالهين بكلّ قوّتها رغم رائحتها المُقزّزة، أشبعتها ضمًّا ولثمًا غاسلة بدموعها وجهها المطرّز بأوساخه، زارعةً عليه رياحين الشوق وقد تهاوى كمودها الذي لفّها بسياجه، فأطلقت زغرودة الفرح الباسقة التي أوسعت المدى وصوتها الحرير شاكرًا:

ـ الحمد لله الذي أنجاك من الموت.

أبوها الذي كان يقف أعلى الدرج ينهشه إخفاقه عزّ عليه أن تنطلق الزغرودة وكأنّها تشمت به. انحدر سريعًا ونفث حقده في وجه فرحتها:

ـ بنتك مثل القطط بسبعة أرواح. لكنّي أعرف كيف أقتل روحها الإبليسة.

* * *

(خرجتْ أختي من غرفة سجنها ضئيلة البُنية، فعل بها الجوع فعله.. بدت كالمسلولة وقد ضمرتْ وجنتاها وأحاطت بعينيها الفاحمتين هالات سوداء. كانت مثل (القروة لا تشبع ولا تروى)، شوقها للطعام جعلها تأكل بشراهة طول النهار وتنام كثيرًا كأنّها لم تنم منذ أن خرجت من بطن أمّها. وفي صحوها تظلّ مُلتصقة بأمّي كظلّها تخشى إن ابتعدت أن يغدر بها أبي وينفّذ بها عقابه الجديد الذي ينويه.

كنّا نعيش بقلقنا.. ننام ونصحو ولا همّ لنا سوى التفكير بتلك الطريقة التي يقتل بها أختي، أسيذبحها؟ هل يغافلها ويدسّ السّمّ

في كوب حليبها أو صحن عشائها؟

قلق يمتدّ. . . وضباب كالدوّامات السوداء يُغرق قلوبنا. أمّي بدورها حرصت ألّا يلمح أبي صفيّة واحترست ألّا تجلس معها في الحوش إلّا حين يخرج وتطمئنّ. تُمدّدها على البساط تحت الشمس الدافئة وتدلّك جسدها بالفازلين وتداوي بعض جروحها التي لم تندمل بعد. كانت تعاملها كطفلة مولودة للتوّ، تناغيها وتغنّي لها وتدسّ اللوز والحلوى في ثغرها. تُمشّط شعرها الذي عاد يشعّ بنعومته.

أبي لم يكن يغفل السؤال عن صفيّة، كانت أفكاره تشطح به فيتصوّر أنّها تخرج وأمّي تتستّر عليها. وكثيرًا ما كان يُفاجئنا بدخوله البيت ليسأل عن صفيّة فتقول له أمّي إنّها في المطبخ. لا يثق بكلام أمّي يقترب من بابه ولا يطمئنّ إلّا حين يسمعها تُطرطقُ بالمواعين وتغنّي فينهرها:

ـ اخرسي صوتك كنهيق الحمار.

أمّي تحاول أن تحنّن قلبه:

ـ خلّيها تغنّي وتوسّعُ صدرها، البنت انكسرت، شيل وسواسك من راسك.

لهجة أمّي الهادئة تُقابلها ثورة منه:

ـ الله لا يُوسّع عليها لا دنيا ولا آخرة، لن أتركها، لازم تموت.

حتى في الليل لا يغمضُ جفنه قبل أن يعُسّ عليها، وحين

تقول له أمّي إنّها نائمة. لا يصدّقها ويذهب ليطلّ من شبّاك غرفتها ليتأكّد بأنّها راقدة في فراشها.

ظلّت صفيّة محترسة من أبي، وظلّ الخوف يُذيب قلب أمّي، قائمة وقاعدة يلوب لسانها:

(يا ربّي ارحمها من طغوته).

* * *

ليلة العرس

مضت ثلاثة أسابيع وحال أبي يُثير استغرابنا، بدأ ينقل إلى البيت كمّيّات من الصخر والحديد والجندل واللبنات الإسمنتيّة وجذوع النخل العارية إلّا من شوكها الطويل ويُكوّمها بالدهليز. أثار فعله غضب وفضول أمّي:

ـ لماذا هذه الأشياء؟ لقد زحمتَ الدهليز.

يُجيب بكلّ هدوء:

ـ أريد أن أبني غرفة ثانية في السطح.

ـ ليش؟ هل تنوي أن تسجن أحد فيها؟

يكتفي بهزّ يده ناهرًا:

ـ مو شغلك.

حيّرنا أمر الغرفة التي سيبنيها. صفيّة دسّت في أذن أمّي مخاوفها:

ـ يُمّه.. يمكن ينوي أن يتزوّج.

بلا اهتمام ولا دهشة ردّت أمّي مُستبعدة فكرتها.

ـ لو كان يريد لتزوّج من زمان، حتى حين أقفر رحمي طلبتُ منه ذلك فرفض.

هزّت صفيّة رأسها وأضافت:

ـ أصلاً من أين له الفلوس؟ لا يملك غير هذا البيت وشغله في الخوص.

هذا الاحتمال الذي همست به صفيّة لم يشغل بال أمّي لكن وسواسها لم يفارقها، ظلّت بين وقت وآخر تنغز أبي:

ـ متى إن شالله ستبدأ البنيان؟

ـ لا تستعجلين... كلّ شيّ بوقته.

والوقت يمضي حتى كاد وسواس أمّي أن يهدأ وتنسى الموضوع واستراح أبي من لجاجتها.

* * *

في تلك الليلة خرجت أمّي وصفيّة إلى حفلة عرس في بيت أحد الجيران، في البداية حين جاءت الدعوة تشدّد أبي ورفض أن تذهب صفيّة لكن أمّي تحايلت عليه وأقنعته بحجّتها:

ـ يا بو هلال خلّيها تروح.. هذا عرس والخطّابات كثيرات.. يمكن الله يُسخّر لها وتتزوّج.

فاضت سخريّته:

ـ البنت معيوبة والأمّ مطروبة.

ورغم قناعته أنّها لن تحظى بعريس، فقد تراخى لأوهام أمّي.

ارتدت صفيّة ثوبًا أخضر مشكوكًا بالخرز والترتر، وألبستها أمّي قلادة ذهبيّة وصبغت شفتيها، وكحّلت عينيها الواسعتين، وفَرَدَتْ جدائل شعرها وزيّنته بطوق من الفضّة.

ما أجملها كانت..! بدت وكأنّها ملكة مُتوّجة. ظللتُ أنظر إليها مسحورًا غير مُصدّق أنّها أختي التي لا أراها إلّا بهدوم البيت وبشعرها المنكوش، أحببت صفيّة تلك الليلة. شيء ما دفعني نحوها صرت أقبّلها بحرارة وأتلمّس ثوبها فيهتزّ وتصدر عنه خشخشات الخرز، أمّي حاولت أن تفك رباطي بها، قالت:

ـ انتبه.. لا تقطع الخرز.

لا أمتثل لأمرها وكلّما خطتْ مع أمّي نحو الدهليز التصقتُ بها أكثر، ألثم يديها وأطراف كمّيها ولا أشبع.

بقدر فرحي أنّها ستخرج لتستأنس كثيرًا في حفل العرس تمنّيتُ لو تبقى معي لأشبع من جمالها وسحر ثوبها. أبدًا لن أنسى منظر أختي تلك الليلة ولا ما تلاه من مشاهد.

هل وجد أبي فرصتة بذهابهما إلى العرس؟

ما إن غادرتا البيت حتى انتعشت روحه، ناداني وطلب أن أساعده في نقل المكوّمات من الدهليز إلى مكان حدّده في الحوش لنرصّها فيه، وبنظرة شحيحة من الحنان حدّق بوجهي وقال:

ـ صرتَ رجلاً ولازم تساعد أباك.

لا أدري كيف صرت رجلاً في لحظة، انتهزتُ فرصة رضاه عنّي وسألته:

ـ يُبَه.. قلت إنّك ستبني الغرفة في السطح، فلماذا تضع الأشياء هنا؟

كلّ شيء جاهز عند أبي خاصّة ردوده:

ـ سيكون نقلها من هنا إلى السطح أسهل لأنّي نويت أن أبدأ.

ببراءتي صدّقته واسْتبسلتُ أساعده وشوك السعف يشكّني فتخرج آهتي ضعيفة. وحملُ الطابوق الإسمنتي يثقل ذراعيّ فتسقط منها واحدة تلو الأخرى وتتكسّر فأمرني أن أكتفي بحمل قطع الحديد والأخشاب الصغيرة.

حين انتهينا من العمل أخذ أبي يصفّ الأشياء بطريقة لا تدلّ على أنّه ينوي نقلها إلى السطح، لكنّني لم أجرؤ على السؤال. وبعد أن انتهى نفض يديه وتوجّه نحو درج السطح. لحقتُ به وراقبته، تأمّل في المكان، ثم صعد الدرج الحديدي المُؤدّي إلى سطح الغرفة التي حبس بها صفيّة. وقف ونظر إلى الأسفل حيث الركام وكأنّه يريد أن يطمئنّ لحسن أدائه، حين انحدر وأنا أتبعه كان سؤالي الحائر يثقل لساني فتخفّفتُ منه:

ـ ليش صعدتَ فوق الحجرة؟

إجابته سريعة وكأنّه أعدّها لمثل هذا السؤال:

ـ أفكّر أن أبني الغرفة الجديدة فوق القديمة.

شيء كالأظافر المسنونة انغرز في مناطق جسدي، وشيء يدعك بقلبي، احتجتُ لمن ألتجئ إليه وأفضي بخوفي الذي سكنني. أمّي تأخّرت، فظللتُ أقاوم النوم وأحوس متنقّلاً من الحوش إلى الدهليز وشيء كالإبر يندسّ في جلدي وأنا بانتظارها.

* * *

طرقة واحدة.. قبل أن تدقّ الثانية كنت أفتح الباب، حضنتْ أمّي رأسي وبصوت مليء بالشفقة:

ـ هلال! ليش بعدك ما نمت؟

قبل أن أردّ فوجئت عيناها بخلوّ الدهليز من ركاماته، وقبل أن تسأل أخبرتها بالذي فعله أبي فضحكت ساخرة:

ـ يالله... خلينا نشوف بُنيانه، يحسب نفسه (الأسطى مقهوي).

كان السرور باديًا على وجهها وأكثره افترش وجه صفيّة التي احتضنتني فتعلّقتُ بعنقها أشدّ عليه وأقبّل كلّ بقعة تصل إليها شفتاي. تكركر وتحاول الفكاك منّي:

ـ بس يا هلال ستخنقني.. اتركني الآن وسأحكي لك عن العرس وحلاوة العروس والأغاني والزغاريد والعشاء الدسم.

خرجنا من الدهليز ونحن نتضاحك، اتّجهتْ أمّي لتدخل غرفتها تتبعها صفيّة لكن أبي قطع طريقهما بصوته الحادّ:

ـ تعالي أنت وابنتك.

التفتتْ إليه:

ـ اصبر علينا حتى نبدّل ثيابنا.

حازمًا أمرها:

ـ لا تُبدّلا.. أريدكما بهذه الثياب ـ وأشار إلى صفيّة.

ذهل وجه أمّي.. دنت منه وهي تمسك بذراع صفيّة، عاجلها وفضّ اشتباكهما وتسلّم صفيّة. ارتعش جسدها وانخطف لونها، حاولت التملّص منه لكن مقاومتها تراخت أمام قوّته، أمّا أمّي فقد حسبت أنّه سيعاقبها:

ـ هل ستضربها؟ ألستَ أنت الذي سمحتَ لها بالذهاب معي؟

ضحك مُستخفًّا بها:

ـ من قال لك إنّي سأضربها؟

باستغراب لا يخلو من قلق:

ـ ما حكايتك؟ تريد أن تُنغّص علينا فرحة ليلتنا؟

قال بلهجة مُتهكّمة وابتسامته تمتطّ على شفتيه:

ـ بالعكس.. أنا أريد أن تكمل الفرحة.

ساخرة منه:

ـ وكيف ستكملها إن شاء الله! هل تدقّ لنا الطبول والدفوف لنرقص؟

أثارته سخرية أمّي فألقمها نار ردّه:

ـ الليلة ستموت صفيّة.

صرخت أمّي وعيناها تنثران الشرار:

ـ ليلة موتها؟! ماذا ستفعل بالمسكينة؟

ـ أنا قلت إن لم يقتلها الجوع والعطش فسأقتلها بطريقة أخرى.

صرخت صفيّة مُستجيرة بأمّي التي ركضت بكلّ قوّتها مستميتة أن تخلّص جسدها النحيل من كمّاشة ذراعيه لكنّها حين فشلت هدّأت من نبرة صوتها وهي ترجوه:

ـ الله يخلّيك يا بوهلال... تعوّذ من الشيطان، الدنيا نصْ الليل لا تُفزع قلوبنا.

صرخته تنهرها:

ـ مالك شغل.. أنا قرّرت أن تموت الليلة.

ارتجفنا.. ناحت أمّي.. وكفّاها تُخفيان وجهها. لملمتُ شتات روحي المطحونة وركضتُ إليه، أتمسّكُ بذراعه:

ـ يُبّه.. الله يخلّيك لا تذبح أختي.

ـ (كُلْ تبن) أختك انعابت ولازم تموت.

كنتُ بعد صغيرًا لا أدرك ما الذي عاب أختي، هل كنت سأوافقه لو أنّني كنت أفهم؟ كنت أحبّ صفيّة ولا أريد أن يصيبها الضيمُ بعد سجنها وتجويعها. عدتُ أشدّه وأصرخ فألقمني كفًّا حارًّا.

لم تتوقّف صفيّة عن الصراخ، فصكّ بكفّه على فمها وبدأ بجرّها إلى درج السطح وهو يزأر بها:

ـ هيّا.. اصعدي أمامي.

الخوف يحاصرها، يُربك خطواتها، سمّرت قدميها حيث وقفت. كأنّ القدر يستخسرها أن تمضي إلى حتفها، لكن دويّ صوته نفضها:

ـ اصعدي...

* * *

كان عليها أن تمتثل. لا مفرّ لها من زوبعة الأمر الشنيع. ستصعد إلى السطح، ثم تتعربش على الدرج الحديديّ لتطلع سطح الغرفة التي كانت قبل أسابيع سجنها وظُلمتها. هناك ستشرف على أرض الحوش وترى المكان الذي أعدّه أبوها لسقوطها.

تمشي بتؤدة كأنّها تمشي على هشيم حياتها، واهنة جافلة، دموعها تطفر جامحة إلى خدّيها. عصفورة يُبلّلها الندى، تنهش الريح ريشها وأبي يصرّ أن يقترف جريمته.

أكوام الحجارة والأخشاب التي دقّ فيها المسامير، قصاميل السعف المُشهرة أشواكها، كومات الحديد المُدبّب، كلّها أسلحة ستفتك بأختي التي جاءت من العرس ليقدّمها أبي عروسًا للموت.

كانت السماء تلك الليلة تشعّ بلونها الفضّيّ. ويموج السكون كالحرير على جسد الأرض، لكن صوت أبي يشقّه كالسكّين:

ـ اصعدي...

صعدتْ...

درجة أولى.. وتوقّفت.

صرخ:

ـ اصعدي...

درجة ثانية.. وتسمّرت في مكانها.

شجّ صوته السكون:

ـ هيّا اصعدي بسرعة.

عجّلتْ في صعودها حتى الدرجة قبل الأخيرة.

لم تعُد قادرة أن ترتقي أكثر، فساقاها المرتجفتان لا تسعفانها، هما الآن مثل ريشتين مكسورتين عاجزتين عن حمل جسد كالجثّة، دمها الهارب من جسدها يتكوّم في رأسها ويملأ عينيها بنار دموعها.

لم تعد تتحرّك...

كانت ترمق قاتلها الواقف كالمارد أسفل الدرج وهو يصرخ بها:

ـ اصعدي... اصعدي.

تغيب في خيالاتها، تتمنّى لو يُدهم البيتَ رجالٌ أشدّاء يصرخون في وجه قاتلها: (تبّتْ يداك) ليكفّ.

تمنّت لو يهبط حسين كالنسر وينشب مخالبه في وجهه ويصرخ:

(إن كنت لا تريدها فأنا أريدها).

ولكن! أين الرجال وأين حسين؟ وأين الله ليرأف بحالها؟ أليس هو في السماء ويراها؟ فلماذا لا يأتي بمعجزة تخلّصها؟ أم تراه هو الذي كتب في لوحها هذه الخاتمة الأليمة؟

صوت أبوها الهادر يوقظها من خيالاتها:

ـ قلتُ لك اصعدي.. هيّا.

ارتقت بضع درجات مرعوبة من هلاكها المُنتظر، والليل الواسع الساكن بانتظار صرخة منها ترفض أن تموت. لكنّها لا تستطيع إطلاقها، فقد تكوّمت في حنجرتها كالحصاة البليدة. تتحطّم تحت خطواتها المُرتبكة حجارة الدرج الصغيرة وتئنّ كأنينها.

* * *

(أنا وأمّي لا حول لنا ولا قوّة.. عيوننا الغارقة بدموعها وأجسادنا المتصافقة ضلوعها نحاول أن نثنيه، أمّي تُطلق صرخاتها المحمومة وتحذّره:

ـ خاف من ربّك يا عيسى.

تؤاتيني الشجاعة.. أدنو منه، أتمسّك به فيقذفني. ومثل جمرة ثقيلة وجدتني أرتطم ببطن أمّي المُتعاركة أحشاؤه، لم أرتدع. انفلتّ أصعد الدرجات حتى وصلتكِ..

هل تذكرين يا صفيّة كيف التصقتُ بجسدك الموشك على الانهيار؟ كنت أحاول أن أشدّك إلى أسفل الدرج وأنا أسمع صفير

صدرك يُطلق لعنات. لكن أبي لحق بي فتعمّدتُ أن أظلّ ممسكًا به وأنا أصرخ بصوتي وأحرّضك:

ـ انزلي يا صفيّة، اهربي إلى الشارع.

وأنتِ كمنحوتة مُثبتة في موقعها لا تسمع ولا ترى.

دفعني فتدحرجتُ وصوتي يحثّك أكثر:

ـ اهربي... بسرعة يا صفيّة.

لكنّك لم تفعلي كأنّك تدركين أنّ قدراتك لا تسعفك.

آآه يا صفيّة...

كنتِ مثل قمر يذوي ويخفتُ نوره، وأنا وأمّي غير قادرين على رشّك بضوء الحياة. ليلتذاك تمنّيتُ لو كان لي جناحا نسر لطرتُ واختطفتك وأطلقتك تلوذين بالمدى الرحيم.

كنت أنظر إليك بحبّ، بشفقة، أرى سمرة وجهك تتلاشى، صرتِ كما الليمونة المعصورة. قدماك في كلّ خطوة تسطّران آلاف الأوجاع وزمهرير جسدك يعصف بضلوعك.

تصعدين...

تصعدين...

تترنّحين إلى الأمام وإلى الوراء وهو كمن ينفخ في الكير يطاردك بعاصفة صوته فترتقين الدرجات بقدمين ثقيلتين.

قلب أمّي يزعق من لسانها بالتوسّلات وقلبي يرتعد ارتعادًا متواصلاً حتى إنّي أحسّه داخل حلقي يكتم صرخاتي وكلّما اقتربتِ

من الموت درجة انتفضت انتفاضة قويّة وأنا أبلع ريقًا مرًّا كالسّمّ.

وصلتِ إلى الأعلى... امتدّ جسدك الأسمر مثل نخلة عارية تبسق إلى نهايتها المحتومة. ألمح تموّجكِ أمامي وشعرك عرائش تتطاير وتنفلت منها حبّات عنب سوداء وعصافير مفزوعة.

كان القمر مُكتمل السطوع، يعكس فضّته عليكِ فيلتمع الترتر المرصّع في ثوبك، والدمعات مثل نجوم تبرق في مُقلتيكِ، وشفتاكِ الجافّتان تتمتمان بصمت. ماذا كانتا تقولان؟ هل كنتِ تصلّين وتطلبين الرحمة قبل الموت؟ أم كنتِ تصبّين حُثالات غضبك على أبي المُعلّقة عيناه بموقعك؟

آآه يا صفيّة... كنتِ تلتمعين كياقوتة!

عيناي وعينا أمّي مشدودة إليكِ تودّعك ولا تشبع من وجهك الذي امتصّ الخوف زهوره الورديّة وربضت على وجنتيك دوائر مثل ذبابات سوداء.

الليل يتّسع مذهولاً.. وصفير ريح خفيف يتماوج في الأفق. وصوت أمّي كالعاصفة يجأر:

ـ يا بو هلال.. يا ويلك من نار جهنّم إن ما عفيتَ عنها.

ـ عسى النار تأكلك وتأكلها. لازم تموت.

كنتِ تتمنّين أن يعفو عنكِ لكنّه ساطكِ بصوته:

ـ هيا احذفي روحك.

وأنتِ...

كطائر الليل الجريح، تهيمين في أرجوحة الهواء. تُلاعب جسدك وتغازل ثوبك الذي تهزّه الرّعشات، خصلات شعرك الطويلة تتطاير كريشات تتكسّر. النجوم واجمة في سمائها ترشّ ضوءها عليكِ كمن ترشّ قطرات ندى.

قلبي كان صغيرًا لكنّه في لحظة انتظار سقوطك يكبر، وحبّك يكبر فيه يا شقيقة الروح وعقلي يغصّ بالأسئلة:

(هل سيكون انحدارك رهيفًا؟

أستحملكِ أجنحة ملائكة وترأف بكِ نسمة الهواء؟

أم ستجتمع شياطين أبي كلّها لتدفعك بكلّ جبروتها فترتطمين بمكان الموت الجاهز؟).

ـ هيا تحرّكي.

صرخة أبي من قلبه اليباب.

ـ لا.. لا يا صفيّة.

صرخة أمّي بقلبها النائح.

ـ إيّاك يا صفيّة.

صرختي من حلق مخنوق.

لكن صرخته انتصرت على صرخاتنا وأنتِ كالحمامة الحائرة لا تعرفين لمن تستجيبين.

(هل من فوز أو حياة!).

وقفتِ فوق سطح الغرفة، فتحتِ ذراعيكِ، تهدّلت أكمام ثوبك الواسعة المطرّزة، بدوتِ وكأنّك نسر جميل يستعدّ للطيران.. ستطيرين الآن في الهواء لكن سماءك التي بانتظارك ليست كسماء النسر التي ستحلّق به في المدى الشاسع. إنّها الأرض التي ستهمدين فيها إلى الأبد.

لم تجرُئي...

العمر عزيز والروح ترفرف تائقة لأملها في الحياة...

طال وجومك.. اشتعل أبوك وثارت دماؤه قهرًا من تلكؤكِ، غاضبًا صعد الدرجات بخفّة فأر حتى وصل حيث أنتِ. وقف خلفك وامتدّت يداه الفاجرتان...

دفعك دون رحمة وكأنّك كلبة جرباء يخشى عدواها ولستِ حشاشة جوفه من دمه ولحمه.

هويتِ....

هويتِ يا صفيّة...

ثقبتْ الهواء مسامير صرختك المدوّية وابتلعها صوت ارتطامك الفظيع.

شعرتُ أنّ جدران بيتنا كلّها تتهاوى، والعالم كلّه يسمع عواءها الذليل، كلّ الجدران بكت وأبوك لم يهتزّ له رمش ندم..

(من لا يعرف الرحمة يا صفيّة لا يعرف الحزن).

لم يهتمّ أن يقترب منكِ أو يُلقي عليكِ ولو نظرة حولاء. فقد

أنهى مُهمّته الشنعاء وخرج...

* * *

هرعتُ وأمّي إليك.. كانت الأكوام التي أرادها أن تُميتك تموت تحتك، وفرش النمل الذي مات شهيدًا الأرض من تحتكِ حريرًا.

عيناك غائبتان عن الوعي، خصلات شعرك تتمرّغ بدمك الذي ينزف من رأسك، من أنفك، من ثغرك ويلوّن شفتيكِ المرتعشتين وهما تُعلنان أنّكِ على قيد الحياة. ارتوى الركام من دمكِ ولم تموتي، كنتِ زهرة تفتّتتْ أوراقها والقلب سليم.

وجهك ممتقع والزفرات تخرج من صدرك كحفيف شجرة عاقر، ورأسك المشروخ تتقاطر دماؤه. أمّي وأنا رغم فرحنا بسلامتك، برغم منظرك الذي يدعو إلى الشفقة. وقد أمرتني أمّي:

ـ روح بسرعة هات ماء بارد.

أسندتُ رأسكِ المشروخ على ذراعها وقطرت الماء في ثغرك، كنتِ تبتلعين بعضه وأكثره ينساب على عنقك وصدرك. بكلّ الحنان والتؤدة حرّكت أمّي جسدك لتحملك. كانت بعض أطراف ثوبك قد تشابكت بشوك السعف فصرتُ أستلّه منها. تعاونتُ وأمّي وحملناك إلى غرفتك ونحن نكثر من حمد الله الذي أنقذك بأعجوبة.

لم تموتي...

تحدّيتِ أبي والموت وسرقتِ لعمركِ عُمرًا.

بكفوف روحها الحنونة داوت أمّي خدوش السعف

(بالآيدين). وغمرت شرخ رأسك بالرماد ليتوقّف نزفه وربطته وهي تنثر قبلاتها على وجهك الذي انتشرت عليه الكدمات.

يومذاك يا صفيّة أدركتُ أنّ لك جسدًا فتيًّا قاهرًا للموت. وروحًا ماردة ترفض العدم. كان الانتصار يشعّ من كلّ عضو بجسدك حتى من أسنانك التي انثرمت واحدة منها.

وأمّي ما تزال منهمكة تبلّل جروحك بالماء البارد وتقرأ عليك آيات من القرآن، كنتِ أنت صامتة غير قادرة على النطق. عيناك فقط نفضتا رموشهما وانفتحتا ذابلتين، صارتا تجولان في الغرفة كأنّهما لا تصدّقان أنّك في الأمان. وتحطّان على وجهي ووجه أمّي التي سارعت تحضنك وتبشّرك:

ـ لم تموتي يا صفيّة، كتب الله لك الحياة.

بصعوبة ابتسمتْ شفتاك الصفراوان وأصدرتِ نحنحة خافتة أفرحتْ قلبينا. جلستُ بقربك أبلّل الفوطة بالماء وأمسح بقايا دم تخثّرتْ على وجنتيك.. آآه يا صفيّة كم كنتُ موجعًا ولا يُبرّد من وجعي إلّا تلك القبلات التي كنت أمرّغها على وجهك دون شبع ولساني يتبلّل بطعم دمك.

* * *

فاجأنا صوت أبي قادمًا من الدهليز:

ـ تفضّلوا.. تفضّلوا.

وقفنا أنا وأمّي خلف الدريشة نتربّص ولا ندري ما الذي سيفعله.

دخل مُتّجهًا من فوره إلى مكان سقوطك يتبعه رجلان يحمل أحدهما كيسًا من الخيش وبيد الآخر قماش أبيض.

وقف أمام الأكوام مذهولاً.. فوجئ!

كان الركام يمدّ له ألسنته الملطّخة بدمكِ شامتًا به. دار أبوك حول نفسه قبل أن ينفلت إلينا حاملاً الكفن مبهور العينين محتقن الوجه:

ـ وينها الكلبة..؟ هيّا كفّنيها سنحملها إلى المقبرة.

شدّتك أمّك إلى صدرها وفي سعادة حاولت أن تختصرها:

ـ صفيّة ما ماتت.. الله أكبر منك ومن ظلمك.

أخفق أبي أن ينال لحظة الابتهاج بموتك.

جأر.. وزأر...

اقترب من جسدك الراتع في حضن أمّي، امتدّت يداه مُحاولاً أن يصل إلى عنقك لكن أمّي لم تمكّنه فابتعد وهو يهدّد:

ـ يصير خير.. والله لن تسلم منّي.

خرج من الغرفة، لحقتُ به سمعتُ أحد الرجلين يسأله:

ـ هل انتهيتم من غسلها وتكفينها؟

افتعل أبي ضحكة كهلة وتظاهر أمامهما بأنّه سعيد بنجاتك:

ـ حسبتها ماتت حين زلّت قدمها وسقطت من السطح، لكن يبدو أنّ لها عمرًا جديدًا. مشكورين يا جماعة.

التقم أبي هزيمته الثانية.. صمتَ. لم يتكلّم مع أمّي وكانت تشعر أنّ بركانًا يغلي بداخله، وأنّه لن يستسلم، وسيبحث عن وسيلة أخرى يقتل بها أختي).

* * *

لم تمُتْ صفيّة من الجوع.. ولا من سقوطها من أعلى السطح.

لم تطمئنّ الأمّ أنّ تفانينه في العقاب قد انتهت. كان شروده وتوحّده مع نفسه يثير شكوكها. تضرب أخماسًا بأسداس، تتخيّل صورًا لعقابات جديدة. قد يُفاجئها بها وهي نائمة كأن ينحر عنقها أو يرميها في الجليب. حرصت أن تكون بعيدة عن متناول عينيه. حصّنتها في غرفتها ولم تتركها وحيدة، حتى في الليل صارت تنام بقربها وينام هلال مع أبيه. ظلّ يطاردها شعور أنّها ستفقد ابنتها، فأوسعت عليها من فيض ما يمتلئ به قلب الأمّ، تحنو عليها صبح مساء ولا ترتوي من تقبيلها واحتضانها.

كان هذان الحبّ والحنان يُشبعان قلب صفيّة، لكنّهما لم يعرفا الطريق إلى جسدها ليشبعاه، كان قلبها يفور برغائبه برغم جروحه وسجنه. كان نملها يصطخب في داخلها فتحسّه بتلاحقه يشقّ مسامّها ويطفو على جلدها مثل ليفة من شوك فتظلّ تحكّ بجلدها حتى تُدميه. وأحيانًا تبدو كمن تلتفّ عليها ألسنة لهب فتتمرّغ على الأرض لتُطفئها وهي تصرخ وتنوح وتعجز الأمّ عن إنقاذها من لحظتها النّمريّة وهي لا تُدرك سبب الحالة التي تدهمها.

ضاقت صفيّة من سجنها، نوافذ البيت المُطلّة على الشارع

سمّرها أبوها، والصعود إلى السطح مُحرّمٌ عليها. ولم يعد مسموحًا لها أن تصل إلى الدهليز وتفتح حتى لصبّاب الماء.

حتى خديجة رفيقتها الوحيدة حرموها منها. كانت تُسلّيها بأخبار الشارع والصبيان والبنات وما يمارسونه من أفعال. فتتذكّر صفيّة تلك الأيّام التي ذاقت فيها أنس اللعب والمداعبات، تجد نفسها مُستثارة وراغبة، فتستسلم لما تتقنه خديجة من فنون المساحقة التي تُخفّف عنها وطأة حرمانها بعد غياب حسين.

لكن خديجة انقطعت عنها بأمر من أبيها وانقطعت معها وسيلة من وسائل الترويح عن جسدها.

* * *

لقاء خديجة

عافت وحدتها وحرمانها.. لعيق الحرمان مُرّ. وأمرّ منه صبر جسدها الظامئ لرجل، أيّ رجل يُذيب نارها ويُدفئ بردها. لم تكن لديها وسيلة لإفطار الجسد الصائم غير حرثِ المواقع الثائرة التي تتجرّع زعاف نشوتها.

طاقتها على الصبر نفدت. شهوتان تتقاذفانها بين النار والنار: شهوة الجسد الجسيمة وشهوة الحرّيّة التي تحتاجها لريّ أشجارها واقتطاف ثمارها. كانت الرغبة بداخلها كحبّة الفول الريّانة صابرة بانتظار تفتّقها.

التوبة عصيّة عليها استعصاء إفطام الوليد.. ورغبتها الجامحة تجعلها لا تفكّر بالعقاب ولا ترهبه. فرصتها الآن بعد أن غادر أبوها إلى مكّة ليحجّ، وقد يدعو عليها هناك بالموت.

كان متوتّرًا قبل ذهابه، وبشبه تهديد كان يحشو أذن أمّها بالوصايا:

ـ انتبهي للبنت.. بالك تطلع الشارع أو تطلّ من السطح.

إيّاك أن تدخل خديجة إلى البيت.. لا تنتهزوا فرصة غيابي.

لا تملك الأمّ إلّا أن تُطأطئ رأسها وبكلّ خضوعها تهمس:

ـ أمرك.. حاضر.. روح وتوكّل على الله وإن شالله ما يصير خاطرك إلّا طيّب.

رغم إنصاتها للوصايا ووعودها له فقد زاد في تحذيره وحلف:

ـ والله وبالله هالمرّة لو صار شيّ بعد ما تشوفين بنتك.

كانت صفيّة تسمع وتهزأ منه في سرّها. وصاياه لأمّها كما الهواء تدخل من أذن لتخرج من الأخرى، سترتاح منه، كلّ البيت سيرتاح، في سرّها:

(ليته يموت هناك ويريحنا من شرّه).

حشفُ القهر الثقيل الذي تراكم عليها تساقط، شعرت أنّها بخفّة عصفور، الفضاء واسع والحرّيّة ثوب أوسع.

أبوها غائب.. أخوها في المدرسة.. أمّها في المطبخ.. قدماها يُنغمشُ بهما النشاط ويسري بهما إلى المكان الذي كان فيه ميلادها مع حسين. عزمت أن تصعد إلى السطح، تشتهي أن تسمع رنين الشارع وتجذب لعينيها عيون الصبيان.

بكلّ الشوق دارت في أنحاء السطح، أطلّت على سطح حسين المهجور، تصفر فيه الأنّات وصدى الهديل، ذرف حنينها دموعها، فكّرت أن تنطّ وتزور الغرفة التي غمرتها بلذائذ أيّامها لكنّها تراجعت، فهي الآن والهة لرؤية الشارع.

سحبت الصندوق إلى الناحية الأخرى. . صعدت وأطلّت برأسها:

(آآه يا جنّتي المفقودة).

كعادته يعجّ الشارع بالغادين والرائحين، بضعة صبيان نسيت وجوههم وأسماءهم وروائحهم وقذارة أظافرهم.

طال وقوفها. . وكلّما حارشها الملل نفخته وكانت نفخاتها ترتدّ عليها حتى كادت أن تيأس. لكنّها مُصرّة أن ترى خديجة فظلّت رانية إلى أبعد مسافات الشارع.

أخيرًا تكرّم الوقت عليها. . . رأتها فتوهّجت فرحتها، ها هي خديجة بعباءتها الكالحة المتطايرة خلفها تحمل زبيلاً ملآنَ بالأغراض تطلّ منه رؤوس الفجل الأبيض. نادتها مرّة وأخرى لكن أصوات الشارع تذرو النداء، كرّرت مرّات بصوت أعلى حتى سقط النداء كسولاً إلى سمع خديجة.

رفعت رأسها. . لم تصدّق أنّ صفيّة هي التي تناديها، لوّحت لها ثم ركضت نحو بيت حسين ولم يعد النظر يلتقطها. شعرت بالأسى:

(تهربين منّي يا خديجة؟).

عندها فقدت شهيّتها إلى الشارع وانحدرت من فوق الصندوق مُحزّمَةً بخيبتها. الدموع التي تجمّعت في عينيها صارت كالغشاء يحجب الرؤية، جفّفت الدموع وما كادت حتى رأت خديجة تنتصب أمامها.

أيّ دهشة فاجأتها وجعلتها تظنّ أنّ التي أمامها خيالاً أو حلمًا تمنّته. لكنّ اندفاع خديجة إليها وهي تغمرها بشوق وتهتف باسمها أيقظها من خيالها، دعكتْ عينيها وألقت بسؤالها المبهور:

ـ خديجة! كيف وصلتِ إلى هنا؟

أشارت لسطح الجيران:

ـ دريشة بيت جيرانكم مكسورة دخلت منها.

ـ يا بختك يا خديجة، أنا المسكينة المحبوسة.

بلقت خديجة عينيها:

ـ وإلى متى ستبقين محبوسة؟

ـ هذا أمرُ أبي.

جلستا على دكّة السطح. أحنت صفيّة رأسها:

ـ لو تعرفين ماذا فعل بي.

كشفت عن آثار الجراح على ساقيها وظهرها وجعلتها تتحسّس سقّ رأسها الذي ترك ندباته.

بهتت خديجة وأفرغت سُمّها:

ـ أبوك هذا ظالم، لا تخافي منه. اخرجي وتمتّعي مثلي.

وكمن تبحث عن أمل ضائع:

ـ كيف أخرج؟ الشبابيك والباب مقفولين وهو يراقبني دائمًا.

ـ في الليل.... نطّي من سطحكم إلى سطح الجيران

واخرجي مثلي من الدريشة المكسورة.

أغرتها الرفيقة بالخروج وبما هو أكثر:

ـ سآخذك معي إلى (بيت الوناسة).

ـ ما هذا بيت الوناسة؟

ـ بيت يجتمع فيه رجال وحريم، يستانسون مع بعضهم. والرجال يدفعون فلوس.

مذهولة ممّا سمعت:

ـ وأنتِ! تروحين هناك؟

بتبجّح وغرور:

ـ طبعًا.. أروح.. وأستأنس.

ـ ما تخافين؟

ـ ما دمتُ أشتهي الوناسة ليش أخاف؟ والليل ستّار.

أصدرت تنهيدة حسرة:

ـ يا بختك يا خديجة، ما عندك أب مثل أبي.

ـ يا شين هالأبّهات.. وأبوك عاد ما له مثيل.

صمتت وصفيّة سارحة، خبطت على ركبتها:

ـ هيييه... وين رُحْتِ؟ تشجّعي.

ـ خايفة..

حنقت عليها خديجة:

ـ شوفي عاد إذا لم تطاوعيني لن آتيك مرّة أخرى. وأنت الخسرانة.

خافت من التهديد وتذرّعت:

ـ أمّي تنام عندي، أخاف تفتقدني وتصير السالفة كبيرة.

ـ اسقيها مغلي (حبّة الحلوة) يخلّيها تنام ولا تحسّ.

حين ابتلعت حيرة صفيّة صوتها اعتبرت خديجة أنّها وافقت فمسحت على خدّها:

ـ في نصّ الليل سأنتظرك تحت الدريشة.

وقبل أن تغادر السطح كرّرت:

ـ لا تنسين.. بالك يغلبك النوم.

هزّت صفيّة رأسها إيجابًا وجسدها تهزّه حبال الرغبة والخوف.

* * *

بيت الوناسة

فُتح باب غواية جديد. . .

هي الآن عُشبة بانتظار السقيا، ثغر جائع يتلهّف لرغيف خبز شهيّ، جسد صائم جفّت عروقه ويحتاج لأمصال الماء اللزج ذي الرائحة لتجري في أروقة شرايينها الماحلة وتُجدّد خلاياها.

نزلت من السطح. ينتفض كلّ ساكن فيها وهي تتخيّل تلك الوناسات التي حكت عنها خديجة. وتتوق إلى الخوض في مباهجها. كان بداخلها فرح كبير. ها قد شقّت لها الدنيا طريقًا سرّيًا يُطعم جسدها ويُسقيه ولن تبالي بأبيها.

ظلّت تتوسّد أملها. . أخيرًا ستسطع لها شمس جديدة.

شربت كثيرًا من الشاي حتى لا يغلبها النوم، وغلت لأمّها كثيرًا من (اليانسون).

استغربت الأمّ:

ـ ليش أنتِ شاي وأنا حبّة حلوة؟

ـ يُمّه أنتِ تتفزّزين كثيرًا من نومك.. أكيد من التعب وحبّة الحلوة تخلّي نومك مريح.

كانت أمّها جالسة بأمانها تخيط ثوبها المفتوق وتدندن بأغنية:

(يوم الاثنين الضحى.. شفتِ لي غروٍ عجيب).

خشيت أن يطول سهرها.. دنت منها:

ـ يُمّه.. يقولون إنّ اللي يخيّط بالليل يغزّ عيون الجنانوة.

ضحكت أمّها:

ـ يقولون..

سحبت الثوب والإبرة من يدها وهي تحثّها:

ـ يُمّه لا تزعجين الجنانوة.. أحسن لك نامي وارتاحي.

تركتها بعد أن رأتها تتثاءب. واتّجهت إلى غرفة الجلوس حيث ينام هلال. كان يجلس على فراشه يحلّ واجبه المدرسي، وقد لاحظ انتعاش روحها وطفح السعادة على وجهها:

ـ أنتِ اليوم مستأنسة.

لم تكذب:

ـ صَحْ.

ـ ليش؟

كذبت:

ـ أمّي اليوم اشترت لي هدوم جديدة.

ـ مبروك.

اقتربت منه، مسحت على رأسه:

ـ أظنّك تعبت من الدراسة ولازم تنام.

فرك عينيه:

ـ خلاص... بقي لي سؤالان أجيب عليهما ثم أنام.

* * *

امتدّ الليل... قماش أسود بعد أن تهالكت ذبالة السراج. أرخى الهدوء ستائره على البيت وخمدت ضجّة الشارع، لكنّها لا تدري متى ينتصف الليل. ظلّت وحدها تتقلّب مثل قطّة على وشك الولادة تنتظر سريان الوقت البطيء. لم تنقطع بها سُبُلُ التحايل، فقد حشت فراشها بالمخدّات والثياب، تمشّطت، تكحّلت، لم ترشّ الكولونيا خشية أن تفضحها الرائحة.

أمسكت حذاءها بيدها وسارت حافية نحو السطح، تحاشت قطّة مستلقية كي لا تموء، أخذت تصعد الدرجات وتستعيد ذلك الصعود إلى حسين والذي نابها منه عقابات أبيها:

(ماذا سيفعل بي لو عرف أنني خرجت؟).

توقّفت خطوتها ودقّ قلبها دقّات سريعة، أرادت أن تعود لكن إغراء خديجة حفّزها أن تواصل:

(خَلْ يصير اللي يصير، ما يهمّني).

أشرفت على فضاء السطح. كان الليل رطبًا والهواء ساكنًا

والقمر باهتًا، سارت نحو الصندوق، صعدت عليه وهي ترتجف ونطّت منه إلى السطح الآخر.

توقّفت.. نظرت إلى الغرفة.. خفق قلبها.. استيقظ كلّ حنينها لحسين، لم تتردّد هذه المرّة دفعت الباب ودخلت.

كان دوي الهجران يمطّ أذرعه البليدة وينثر روائحه، استلّت أنفاسها رائحة حسين وانسرب عطرها إلى فضاء قلبها فانتعشت. جالت بعينيها في المكان، البنديرات لم تعد في أماكنها على الجدران وآثار الحمام من ريش وبقايا ما تزال منثورة على الأرض، لمحت غترة حسين مُكرمشة في الزاوية، التقطتها وقرّبتها من أنفها، تشمّمتها وهي تغمضُ عينيها وتستحضر وجهه الجميل وكلّ شيء فيه، اشتهته.. تمنّته.. طفحت الرغبة من كلّ جسدها، لم تحتمل، لوت الغترة حتى اشتدّت ودسّتها فوق المنقار وبدأت اللعبة وهي واقفة حتى استُثيرت.. صهلت بشهقتها ثم ذرفت دموع حزنها قبل أن تغادر الغرفة.

انحدرت إلى الحوش. لم يكن نظيفًا واضمحلال الضوء فيه أثار فزعها:

(البيوت المهجورة يسكنها الجنّ).

أسرعت إلى الغرفة المُطلّة على الشارع دخلت وبحثت عن الدريشة المكسورة، غرّدت روحها، أطلّت منها وتلفّتت فلم تجد خديجة! اغتمّ قلبها:

(هل نسيت وعدها؟ هل تراجعت عن خطّتها؟ أم أنّها هي التي

جاءت مُبكرة؟). قرفصتْ تحت الدريشة وانتظرتْ. كان الوقت يمرّ عصيبًا عليها. بدأت تنعس وخشيتْ أن يغلبها النوم ويفتضح أمرها. فكّرت أن تعود إلى فراشها لكن صوت الخطوات القادمة بشّرها بقدوم خديجة التي استعجلتها لتخرج.

كانت الفتحة ضيّقة. لكنّها سمحت لجسدها النحيل أن ينخرط انخراط ثمرة مُستوية من غصنها.

بخُطىً كوَثْبِ الأرانب حملهما الليل ملتفّتين بعباءتيهما.. طائرين أسودين. الشارع ساكن وكل البيوت أطفأت سراجاتها وغطّ ناسها تحت شراشف نومهم، حتى القطط نامت عند المداعيب، صمت رغم حاجتهما إليه إلّا أنّه مخيف يبعث الرجفات إلى جسديهما فتسرعان أكثر مُحتميتين بظلال جدران البيوت الواطئة ومُتحاشيتين الدوس على بقايا القمامات.

* * *

لم يكن البيت بعيدًا.. دلفت بها خديجة إلى سكّة ضيّقة.. تعدّت ثلاثة بيوت ثم وقفت أمام باب صُبغتْ جوانبه بلون أخضر باهت. يُزيّن أعلاه تاج مزخرف بدوائر ملوّنة. على درفته اليمنى ترتاح مضربة الباب الحديديّة. رفعت خديجة كفّها وطرقت.

دقّتان خفيفتان وفُتح الباب.

بدت قامة المرأة التي فتحت الباب بطول فارع، أشارت لهما أن تدخلا سريعًا وأغلقت الباب.

انعكس ضوء السراج المعلّق في سقف الدهليز على المرأة،

فانبهرت عينا صفيّة بجمالها. . وجه مستدير ورديّ، حاجباها رفيعان يمتدّان أطول من فتحة العين، بينهما وبين العينين مساحة واسعة ملوّنة بكحل أسود، وشفتاها مصبوغتان بأحمر فاقع، بين أسنانها يلتمع سنٌّ ذهبيّة. شعرها طويل ملويّة أطرافه. ترتدي ثوبًا أخضر، يطلّ نهداها الأبيضان من فتحة الصدر الواسعة كأنّهما عجينة صلبة. ويتدلّى من عنقها عقد بفصوص ذهبيّة لامعة.

قدّمتها خديجة وهي تنظر إلى المرأة نظرة فوز:

ـ هذه صفيّة التي حكيتُ لك عنها.

اقتربت منها المرأة. . عانقتها وطبعت على وجنتيها قبلات ذات صوت مسموع وكأنّها تعرفها من قبل ممّا زاد في انبهار صفيّة بها.

التفتت المرأة إلى خديجة:

ـ أنت تعرفين المكان، ادخلي وأنا سآخذ صفيّة.

نظرت صفيّة إلى خديجة بعينين متسائلتين فغمزت لها خديجة بما يعني أن (روحي معها).

أمسكت المرأة بكفّ صفيّة وقادتها خارج الدهليز إلى غرفة قريبة وأغلقت الباب. أجلستها على أريكة مغطّاة بسجّادة مخمليّة عليها رسومات أزهار وطيور. جلست بقربها، تأمّلتها وتحسّست وجهها وهي تبدي إعجابها:

ـ مو حرام هذا الجمال يندفن في البيت؟

أرخت صفيّة وجهها خجلاً فرفعته المرأة بإصبعها وهي تعرّفها بنفسها:

ـ اسمي هناء.. أنا صاحبة هذا البيت ومديرة وناسته.

همست صفيّة وهي تبتسم:

ـ اسمك حلو ليس مثل أسمائنا.

مازحتها:

ـ ليس أجمل منك.

وأمسكت بيدها وهي تشير لأرجاء الغرفة:

ـ هذه غرفتي الخاصّة.. لا تدخلها إلّا الغاليات مثيلاتك.

(هل صرتُ غالية عليها من الآن؟).

واصلت هناء:

ـ الآن أريد أن أتحدّث إليك قبل أن نبدأ الوناسة.

استعرضت ثيابها وأبدت استياءً أحرج صفيّة:

ـ أوّلاً.. جمالك هذا لا تناسبه هذه (الشماطيط)[1] وهذا الوجه تلزمه بعض الألوان ليشعّ بالبهاء.

ترقرق صوت صفيّة بماء خجلها وهمست:

ـ أنا لم أتكحّل ولم أضع الأحمر إلّا يوم ذهبت إلى عرس مع أمّي.

---

(١) الشماطيط: الملابس الرثّة.

طمأنتها هناء:

ـ أنا سأعلّمكِ كيف تلبسين وتتجمّلين.

تهلّل وجه صفيّة ورفرفتْ أحلامها. وصوت هناء يتابع:

ـ اسمعي يا صفيّة.. جميع الرجال الذين يأتون إلى هنا (عايفين) بيوتهم، هاربون من رثاثة زوجاتهم ويرغبون أن تُزغزغ عيونهم أشكال وألوان الثياب. المتعة يا صفيّة ليست للأجساد فقط بل للعيون أيضًا.

قالت صفيّة بصوت حزين:

ـ بس أنا ما عندي ثياب حلوة.

ـ لا تحزني... أنا سأهتمّ بك وألبسك أجمل الملابس، تعالي.

مشت بها نحو خزانة عريضة وفتحتها:

ـ شوفي.. كلّ هذه الثياب وغيرها تحت أمرك.

ـ آآآه...

شهقت صفيّة حين رأت كمّيّة الملابس ذات الألوان الزاهية المشكوكة بالفصوص والترتر بكلّ ألوانه. تلمّستها وهي غير قادرة على إخفاء انبهارها.

فرحت هناء باندهاشة صفيّة:

(سيكون أمرها سهل وتتعلّم بسرعة).

اقتربت منها:

ـ الآن وقبل كلّ شيء ستدخلين إلى الحمّام لتستحمّي.

لم تلتقط هناء الاستغراب الذي ارتسم على وجه صفيّة، كانت قد تحرّكت نحو الباب، فتحته ونادت:

ـ ربيعة.. تعالي.

دخلت ربيعة.. امرأة مكتنزة تبدو بنيتها قويّة وربّما لهذا السبب تتولّى دعك الأجساد.

أشارت هناء نحو صفيّة وهي تأمر ربيعة:

ـ خذيها إلى الحمّام، أريدك أن تفركي جلدها حتى يتلألأ، ثم عطّريها.

صفيّة المُرتبكة كادت أن تبكي وهي تصكّ على جسدها بذراعيها:

ـ لأ... أنا أستحي.

أثارت شفقة هناء فهدّأتها:

ـ لا تخجلي من ربيعة، ستكون رقيقة معك، وأنا سأجهّز لك ثوبًا مثيرًا، وأزيّنك بنفسي.

* * *

ببطء خلعت صفيّة ثيابها، وحين ألقت بساترها أسرعت تستر عورتها بكفّيها.

عينا ربيعة استعرضتا الجسد وأطلقت هي شهقات خفيفة:

ـ الله.. الله.. ما هذا الجسد الجميل؟

أمسكت بذراعها ورفعته، رأت شعر إبطها كثيفًا فعاتبتها:

ـ البنات الزينات لا يتركن الشعر هكذا.

همست صفيّة:

ـ ما أعرف أشيل الشعر وأمّي ما علّمتني.

ـ أنا سأعلّمك الآن.

فتحتْ خزانة صغيرة وأخرجت منها أداة الحلاقة. رفعت ذراع صفيّة أرغت الشعر بالصابون وبدأت تحلق لها وهي تقول:

ـ لا تخافي لن يوجعك.

أنهت حلاقة الإبطين ثم انحدرت عيناها على العورة، كشّرت وزمّت شفتيها:

ـ وهذا.. كيف يكون حاله عند دورتك الشهريّة؟ أكيد تفوح رائحتك.

صوت صفيّة المرتعد:

ـ أخاف يمكن ينزل الدم.

لم تهتمّ ربيعة بخوفها، أمرتها:

ـ اجلسي وافتحي ساقيك ولا تتحرّكي.

امتثلت للأمر... كانت كفّ ربيعة حريصة أن لا تخدش لحمها وذلك جعل صفيّة هادئة وقد فارقها خوفها حتى أنهت ربيعة

الحلاقة وقالت وهي تضحك:

ـ خلصنا من عشّ العصفور على خير، الآن نبدأ بالاستحمام.

صبّت الماء على رأسها حتى تبلّل شعرها فأرغت عليه الصابون وفركته فركًا قويًّا أكثر من مرّة وهي مستاءة:

ـ كم شهرًا لم تغسلي شعرك؟ (زين ما دبا فيه القمل).

صفيّة لا تردّ لكن داخلها يبكي بصمت.

أمسكت ربيعة بليفة خشنة وصارت تدعك بجسدها وصفيّة تُوَنون:

ـ (آي.. آي.. عوّرتيني).

ـ لا تونّين، جسمك وسخ ولازم ينظف.

لفّت شعرها وجسدها بفوطة بيضاء كبيرة وخرجت بها إلى حيث هناء بانتظارهما.

* * *

كانت هناء تجلس على السرير وقد فردت عليه الثوب وأشياء أخرى لم تستطع صفيّة أن تتحقّق منها. ابتسمت لها هناء:

ـ الله... الله.. ألحين بيّن الجمال.

وجّهت كلامها لربيعة:

ـ خلاص. انتهت مهمّتك أنا سأتولّاها.

اقتربت منها وشدّت الفوطة. أحرج صفيّة عريها واحْمَرّ

وجهها، تعاطفت هناء معها ولاطفتها:

ـ لا تخجلي منّي أنا مثل أمّك.

(أمّي عمرها ما شافتني عريانة. أجلس على (تختة) الحمّام وجسدي كلّه ملموم على بعضه، تفرك شعري ثم تخرج تاركة لي غسل جسدي الذي لم أكن أعرف كيف يُدعَكُ بالليفة).

سحبت هناء قطعتين من فوق السرير واقتربت نحو صفيّة. رفعت أمام عينيها القطعتين وقد وشت ابتسامتها العريضة بالشفقة على صفيّة:

(بالتأكيد لم تر عيناها مثل هذا).

قبل أن تُحيط صدرها بالقطعة الأولى أمسكت بثدييها وهزّتهما:

ـ عندك صدر جميل.

صفيّة ترتعش وتكاد تبكي، تجاهلت هناء غبش دموعها وبدأت تحيط الثديين وهي تشرح لصفيّة:

ـ هذا يسمونه (زخمة) يخلّي الصدر أجمل ولا يتهدّل.

تغطّى عريها الأعلى، ساورها وسواس:

(لو أمسكت بي من تحت ستكتشف منقاري).

خمد وسواسها حين مدّت لها هناء بالقطعة الأخرى دون أن تلمسها:

ـ إلبسي هذا.

ضحكت صفيّة كالبلهاء:

ـ ما هذا؟ وأين ألبسه؟

بادلتها هناء ضحكها الأهبل:

ـ هذا سروال.. اِلبسيه.

ـ سروال؟ ـ مواصلة ضحكها ـ ماذا سيغطّي؟

أدركت هناء أنّها لوّعت البنت بتفانينها:

ـ أدري سراويلكم غير، اِلبسيها في بيتكم.. بس هذا لبيت الوناسة.

أوّل مرّة ترى سروالاً بهذا الشكل والحجم.. لونه أزرق شفّاف وعلى أطرافه كشاكش صغيرة بلون أكثر زرقة.

لبسته بعد جهد وأعجبها شكلها وهي بحاملة الصدر والسروال.. جرُؤت وأخذت تدور به أمام المرآة وهناء ترقب فرحتها بعطف ثم نادتها:

ـ تعالي يكفي دوران.. الآن ستلبسين الثوب الجميل.

زاغت عينا صفيّة وهي ترى الثوب الأحمر المزيّن بوردات بيضاء، في قلب كلّ وردة فصٌّ أحمر لامع، وكاد يُغمى عليها حين ارتدته واكتشفت أنّه عاري الصدر والزندين.

لم تصدّق صفيّة نفسها! كيف كانت؟ وكيف أصبحت بعد أن ارتدت الثوب، وبعد أن سرّحت هناء شعرها وجمّلته بالبكلات، ومن ثم خطّت لها حاجبيها وكحّلتها ورسمت لها شفتيها بحيث تبدوان أكثر اكتنازًا.

مبهورة كانت صفيّة تتأمّل نفسها بالمرآة وهناء تراقبها بإعجاب كبير:

(هذه البنت ستدوّخ الرجال وسيكون ثمنها باهظًا).

لم تتمالك صفيّة نفسها.. اندفعت إلى هناء بكلّ فرحتها وصارت تقبّل وجهها ورأسها وكفّيها. احتضنتها هناء وجلست معها على السرير:

ـ اسمعي.. أنا سأشتري لك الكثير من الملابس وقمصان النوم وأدوات التجميل والعطور وغيرها. وهذا سيكلّفني كثيرًا من المال، لهذا لي شرط أن آخذ نصف المبلغ الذي سيدفعونه لك.

اعتلى وجه صفيّة شيء من النفور:

ـ بس أنا ما جئت من أجل الفلوس.

استغربت هناء واسترابت منها:

(هل كلّفها أحد التجسّس على بيتي!).

بانفعال سألتها:

ـ إذن! من أجل ماذا جئتِ؟ كلّ الحريم والبنات يأتين ليأخذن الفلوس.

حدّقت بهناء ودونما خجل:

ـ أعاني من جسدي، شهواته لا تهدأ وأنا محرومة.

ارتاحت هناء وضحكت بصوت عالٍ:

ـ ليس عيبًا، إن كان جسدك يطلب المتعة، فمن حقّه أن تعطيه، وهنا ستجدين أشكالاً وألوانًا من الوناسات.

شعّ وجه صفيّة، ابتسمت وقالت لهناء:

ـ خذي كلّ الفلوس، المهمّ أن أستنس.

نظرت إليها هناء نظرة جادّة:

ـ اسمعي.. هنا لن تكوني لرجل واحد، عليك أن تتعاملي مع كلّ من يرغب فيكِ وإنْ لم يعجبك. وانتبهي... فهذا البيت للوناسة فقط وليس للحبّ والتعاسة.

فهمت صفيّة...

لن يكون هنا واحد مثل (حسين) الذي شغل قلبها واحتلّ وحده جسدها.

(صحيح الحبّ تعاسة، بسببه سُجِنتُ وغُصِبْتُ على قتل نفسي).

قبل أن تخرج هناء ابتسمت لها.. فتحت الباب وأشارت إلى غرفة تبعد عن غرفتها:

ـ بعد قليل تلحقين بي. الرجال والحريم كلّهم هناك، وأيضًا رفيقتك خديجة، وأذكّرك بشيء هامّ، أدخلي وثغرك ضاحك، الرجال ينفرون من الوجه العبوس، ولا أريد أن أزعج زبائني.

* * *

جلست تفكّر وتتخيّل شكل الغرفة ومن فيها. فلم يستطع عقلها

الجاهل أن يحدّد لا الأشكال ولا الوجوه. ألقت على نفسها نظرة أخرى في المرآة فيها من الإعجاب والزهوّ بشكلها الجديد الشيء الكثير.

قلبها يدقّ.. لا تدري أيّة مفاجآت بانتظارها، فتحت الباب وخرجت تتعثّر بالحذاء ذي الكعب العالي.

سارت تقطع المسافة من غرفة هناء إلى الغرفة التي ستنضمّ فيها إلى المجموعة، لم تكن بعيدة لكنّها كانت تمشي الهوينى خشية أن تسقط خاصّة أنّ أصوات النساء والرجال التي تتناثر من الداخل تربكها وكذلك توقها لكشف تلك الأجواء الجاهلة بها.

وصلت بسلام..

دفعت درفة الباب المواربة ومدّت خطوتها الأولى بصعوبة...

ما إن بسقت بقامتها حتى ساد صمت غريب، عيون الرجال كلّها اشرأبّت وحطّت عليها، قامة رشيقة، شعر أسود ينسدل حتى مؤخّرتها، عينان تبرقان، وثغر يفوح منه التشهّي.

ارتبكت.. ظلّت قدماها مشدودتيْن إلى الأرض.. أدركت هناء محنتها فقامت وأمسكت بيدها وسارت بها وهي تُبشّر الحضور:

ـ هذه ضيفتنا الجديدة، ستكون من أهل البيت، اسمها صفيّة.

لتخفّف من ارتباكها وخجلها أجلستها قرب خديجة التي أوسعت لها وهي تفرش ابتسامة النصر.

سمعت همهمات الترحيب والنحنحة الخارجة من حناجر متلوفة من الدخان وانتعشت وهي تسمع آهات الإعجاب.

* * *

بدأت تستعرض جوّ الغرفة العابق برائحة التتن و(القدو)[1] وروائح عطور الحريم التي رغم فوحها القويّ لم تمنع رائحة الآباط المُتعرّقة. أنوار الغرفة خافتة وعلى الجدران عُلّقت صور ملوّنة لنساء عاريات أو نصف عاريات. على المطارح تجلس الحريم بملابس فاضحة شفّافة ـ عرفت بعد ذلك ـ أنّها قمصانٌ للنوم. زينة وجوههنّ صارخة، ضحكاتهنّ فاحشة وهُنّ يعلكن العلكة ويُصدرن طرقعتها بفجاجة. الكلّ يحمل كؤوسًا بها سائل أبيض حسبته حليبًا، لكن رائحته القويّة أثارت فضولها فهمست تسأل خديجة التي همست بدورها: هذا عرق.

(عرق؟.. كيف يشربون العرق؟!. ومن أين يأتون به؟

كم يحتاجون من الناس ليجلسوا تحت الشمس الحارقة حتى يعرقوا ويجمعوا عرقهم؟).

لاحقًا سألتْ هناء فغشيت من الضحك وأخبرتها أنّ هذا شراب للوناسة يأتون به من العراق.

بدأت مشاوير صفيّة إلى البيت العامر بالوناسات.. ثلاث مرّات في الأسبوع. لم تعد خديجة تأتي لتصطحبها. فقد عرفت الطريق الذي تكنسه بخطواتها وفوران جسدها. كانت تقطع

(١) القدو: النارجيلة.

الشوارع لا يهمّها هطل الغبار ولا دبق الرطوبة، تعرّفت على أشكال من الأجساد وتذوّقت كلّ أنواع المُتع، ولبّت رغبات جسدها ورغبات الرجال. تقرف من روائح بعضهم وتحتملها، وتستاء من بعض الأوضاع الغريبة التي تؤلمها. وحين جرّبتها أوّل مرّة بكت واشتكت لهناء، ظنّت أنّ هناء ستوصي بها الرجال خيرًا وتريحها ممّن يمارسون هذه الأوضاع، لكنّها فوجئت بها تثور وتصرخ لاذعة بلسانها:

ـ أنتِ هنا لخدمة الزبائن، عليك أن ترضخي لكلّ ما يشتهون وإن لم يعجبك هذا الشيء استريحي في بيتكم.

أدركت أنّها فريسة لهناء وزبائنها، مُجبرة سترضخ.. فهي بحاجة لهذا البيت الذي يغمر جسدها بمياه الحياة حتى صار جسدها مُباحًا للحرث والسقيا.

كلّهم توسّدوا صدرها، ولجوا سردابها، وهي تملّحت بملحهم وانتعشت أذنها بما لذّ من أطايب الكلام الفاحش المثير. واعتاد ثغرها ابتلاع رحيق ثغورهم ودفق شهواتهم، لا تشبع ولا تكتفي بواحد في الليلة، وهناء تدرك مدى شبقها ولا تمنعها، ففي كلّ مرّة تكسب المزيد من المال.

* * *

منحت صفيّة جسدها لكلّ الرجال صار رمل الصحراء الذي تطأهُ كلّ البعارين والبحر الذي تحوس فيه الهوامير، لكنّها ورغم كلّ المُتع لم تكن تصل إلى اكتمال نشوتها إلّا إذا استحضرت وجه حسين وجسده وتخيّلت أنّه هو من يُراقدها، ظلّت تحبّه وتتمنّى لو

يعرف بيت الوناسة ويأتي لتشبع منه.

كانت حريصة أن تغادر بيت الوناسة قبل أن ينبلق الفجر ويصدح الأذان. تدخل بهدوء إلى غرفتها متفيّأة ظلال خطيئتها لا يخالجها أيّ إحساس بالندم بل يدغدغها انتصارها على أبيها الذي لم يستطع بكلّ ما فعله بها أن يُخمد جذوة الاشتعال بجسدها النازع إلى حبّ الحياة. تصفن عيناها بالسقف وتفكّر بحسين وحده دون كلّ الرجال الذين يمتعونها وتتركهم في بيت الوناسة حتى يغلبها النعاس فتنام مسرورة القلب، مُنتشية الجسد، قريرة العين.

لم يكن من شيء ينغّص عليها سعادتها ويُتخم تفكيرها بثقله غير اليوم الذي سيعود فيه أبوها من الحجّ. كيف سيكون حالها؟ لن تمتلك حرّيّتها كما هي الآن، سيعود جسدها يجوع بعد شبع وروحها تعطش بعد ارتواء.

منذ المرّة الأولى التي دخلت فيها بيت الوناسة واكتشفت رقّة الرجال وكيفيّة تعاطيهم مع جسدها ومداعباتهم المُتنوّعة اللذيذة، وهي متحيّرة. هل يعرف أبوها كيف يُسامر أمّها؟ هل يبوسها ويتحسّسها قبل أن يرقد معها؟ هل يعرف أنّ للجسد رغبات عجيبة؟

تصل إلى نتيجة أكيدة وهي أنّ والدها لو كان يعرف لعذر جسدها وحاجاته الطبيعيّة.

* * *

ارتواء صفيّة جسدًا وروحًا غيّر من حالها.. في النهار تبدو مفعمة بالنشاط، مرحة، ضاحكة، تساعد أمّها، تخبز، تكنس، تغسل الثياب وترتق فتوقها.. لا تكسل ولا تتذمّر، وحين يأتي

هلال من المدرسة تضمّه إليها وتشدّ عليه فينتزع نفسه منها وهو يذكّرها:

ـ أنا كبرت، صار عمري اثنعش سنة.

لكنّه قبل أن ينام يناديها لتلعب معه (الجنجفة)[1] أو لتحكي له حكاية فتجد فرصتها لتغيظه:

ـ ألا تقول إنّك كبرت؟ و(الحزاوي)[2] للصغار.

يندفع إلى حضنها، يعانقها ويقبّلها:

ـ لأ.. ما كبرت. أحبّك وأحبّ حزاويك.

لا تردّ صفيّة رغبة لهلال حتى وهي تحتاج لوقت راحة تستعيد به لحظات بيت الوناسة لتشحن جسدها بالرغبة في الأيّام التي لا تذهب بها إلى هناك.

عاد هلال ذلك اليوم من المدرسة وهو ليس كعادته، صامتًا مهمومًا، حين أقبلت عليه فرّ هاربًا وصفق باب غرفته عليه.

لحقت به صفيّة بقلب جازع:

ـ ما بك يا هلال؟ أنت مريض؟

أشاح بوجهه عنها:

ـ لأ..

---

(١) الجنجفة: الشدّة ـ أوراق اللعب.

(٢) الحزاوي: الحكايات.

وضعت يدها على جبينه تجسّه وارتاحت:

ـ الحمد لله، ما فيك سخونة، بس ليش مهموم:

حدّق بها غاضبًا:

ـ وين كنتِ ليلة البارحة؟

هبط قلبها من الرعب:

ـ كنت في فراشي.

لأوّل مرّة يجرؤ ويرفع صوته:

ـ تكذبين.

بهت وجهها، لم تعتده يرفع صوته، بالكاد استلّت لحمة لسانها:

ـ ليش تكذبني، مو عيب عليك؟

نفر لسانه:

ـ لأنّك ما كنت في فراشك.. البارحة وجعني بطني وجئت إليك لأوقظك بدل أن أزعج أمّي فوجدت المخدّات في الفراش، قولي.. وين كنتِ؟

ابتلعت صدمتها:

ـ أقول لك بس ما تقول لأمّي؟

مُستعجلاً الذي سيسمعه:

ـ قولي. ولن أقول.

تمسّكنت:

ـ يا هلال ضاق صدري.. طلعتُ السطح أرفّه عن روحي وأشوف القمرة.

ببراءته صدّقها لكنّه ذكّرها:

ـ ألم يمنعك أبي من الصعود إلى السطح؟ أنتِ ما تخافين ولا تتوبين؟ أم ولهتِ على العصا؟

ـ ميخالف يا هلال.. الدنيا ليل ولن يشوفني أحد.

ـ أمّي تدري؟

ـ أنت تعرف أمّي، نومها ثقيل.

ـ معقول ولا مرّة حسّت بفراغ فراشكِ؟

ابتسمت:

ـ مرّة واحدة، ولمّا سألتني قلت لها إنّي كنت نائمة عندك.

نظر إليها نظرة مبلّلة برذاذ الدموع:

ـ مسكينة أمّي تحبّك وتصدّقك، بس الله يخلّيك صفيّة. كوني عاقلة وانسي السطح.

ـ عيوني هلال.. أوعدك ما رح أطلع.

لكنّها الرعناء لا تفي بوعدٍ ولا تصغي لنصيحة. فشيطان جسدها يطير بها إلى جحيم الملذّات. تمادت حين لم تلتقطها عين وهي تنزلق من الدريشة ولا حين تعود إليها قبل الفجر مثل خفّاش

ليل يبحث عن ملاذ. كانت سعيدة ومرتاحة، لكن مصيدة هلال أوقعتها في المأزق الذي كانت تخشاه. اليوم صارحها، وأبدى خوفه عليها، حذّرها فوعدته، ولكن ما الذي يضمن لها أنّه صدّقها ولن يبدأ بمراقبتها؟ وإن اكتشف غيابها عن فراشها وفي السطح فماذا ستقول له؟ (وقوع الجرّة لا يسلم كلّ مرّة).

اسودّت الدنيا أمامها.. وتغضّن أفق حرّيّتها وستنكمش أكثر حين يعود أبوها من الحجّ.

(كم سيكون الحال صعبًا).

* * *

(لم يخطر ببالي أن أشكّ بأمرك يا صفيّة، صدّقتكِ وكنتُ رفيقًا بك، فسنواتي الاثنتا عشرة لا تسمح لي أن أتطاول عليك، ولا تُؤهّلني أن أكون وليّ أمر له السمع والطاعة. وإلّا لكنت تسلّلتُ إلى السطح لأكتشف أنّك تكذبين. آآآه يا صفيّة ليتني فعلتُ لدرأتُ عنك ظلم نفسك وظلم أبي عليك. لم أكن رجلاً كما أراد أبي وفهمتُ مُتأخّرًا لماذا كان يُحرّضني عليك. فهمت أنّ نظرة الأب المسؤول غير نظرة الأخ الذي يحبّ أخته للدرجة التي لا يفكّر أن يحميها. لم أكن أستوعب كلمات أبي: (أختك شرفك). حتى عندما قرّر عقابك الأخير ما كنت أعلم أنّه بين نارين: إمّا قتلُكِ أو سجنكِ. وربّما لو كنت أكبر سنًّا لأعطاني السكّين وأمرني أن أغسل الشرف الذي لوّثتِه وجلبتِ به العار. الآن يا صفيّة أشعر بالشفقة على أبي وإن كنتُ لا أغفر له أشكال التعذيب التي مارسها عليك. كيف لم يستطع أن يُقَوّمكِ بطريقة تحميكِ وتحفظ له ماء

وجهه وكرامته؟ لماذا لم يصرّ على موقفه ويجبر أبو حسين أن يُزوّجكِ لابنه؟ حتى اليوم أستغرب لماذا لم يفعل ذلك؟ هل عزّت عليه نفسه أن يُزوّجكِ لابن السمّاك؟ أم كان يكرهكِ للحدّ الذي أراد أن يحرمك المتعة ليُؤذيك بكلّ ما أوتيَ من قسوة وقوّة! أم هو قدرك المكتوب في لوحكِ بحروف سوداء؟).

* * *

الفخّ

غابت صفيّة عن بيت الوناسة أربعة أيّام قد تكون كافية ليتأكّد هلال أنّها التزمت بالوعد، ولكي يطمئنّ أكثر نامت عنده واحدة من الليالي الأربع. سامرته وقصّت عليه من القصص أجملها، حين بدأ بالنعاس أخذت هي تتذمّر من الحرّ. ولأنّها تريد منفذًا لحرّيّتها قالت له:

ـ شُفت هذا الحرّ؟ أزيَدَ منه في غرفتنا أنا وأمّي.

قال دون اهتمام:

ـ الحرّ في كلّ مكان.

سريعًا قالت:

ـ لكنّه في السطح أقلّ لأنّه مفتوح للهواء.

حين لم يردّ أمسكت بذراعه:

ـ تعال.. خلّينا نروح السطح وننام هناك.

سحب ذراعه:

- روحي أنت.. في السطح تكثر الزهيويّة وأنا أخاف منها.

كم اغترّت بذكائها، وكم استغلّت طيبته وبراءته، اطمأنّت.. صعدت ونامت وهي على قارعة الانتظار تحلم بالليلة القادمة.

عادت إلى بيت الوناسة أكثر شوقًا وأرحبَ صدرًا. لكن قلقها ظلّ يأسرها، تنساه حين تكون مُرتمية بين الأذرع وتحت الأجساد الدافئة، وما إن تخرج حتى يتعقّبها كظلّها مثل شبح يطاردها ويلفّ عليها شباكه الوهميّة ولا يتركها حتى وهي في فراشها.

تلك الليلة ظفرت برجل جميل ودودٍ. صبّ لها كأسًا.. جاملته وشربت، ولمّا صبّ الثانية رفضت وصارحته أنّها لا تحبّ أن تشرب كي لا تفقد وعيها كما يحدث لبعض الحريم والبنات المُتردّدات إلى البيت. لكنّه أغراها بلمساته الناعمة وكلماته العسليّة فعبّت الكأس تلو الأخرى. وهو يُشبعها من اللذّات ما جعل شهواتها تتواصل ونشواتها تكتمل. شعرت بالإرهاق فتوسّدت صدره وأغفت.

* * *

حين تنبّهت كان الليل قد قطع من ذيوله ساعات كثيرة. هبّت كالمقروصة. وقبل أن تمسح أصباغ وجهها وتنزع ثوبها العاري لبست عباءتها وغادرت البيت على عجل قبل أن تتلاحق أمواج الظلام لتشقّ غلالة الفجر.

الليل مُسالم وحنون، لكنّ القمر تعرّى من كلّ قمصانه وهو يتربّع على سريره الضوئيّ وأذرعه التي من نور تبسطُ امتدادها على الأرض وتتلصّص على المخلوقات الساهرة.

كانت في غمار الليل مثل فأرة تفرّ مفزوعة إلى جحرها، وكانت بخطواتها السريعة مُطمئنة ككلّ ليلة من خُلوّ الطريق، لكنّها فجأة لمحت خيالاً قادمًا يقترب باتّجاهها. تجمّدت في مكانها. انتفضت كلّ سعفات روحها، أدركت أنّ الليل سرى والفجر دهمها. هذا هو (المُلّا أبو صالح) مُمسكًا بسبحته الطويلة قاصدًا المسجد ليصلّي الفجر.

وقعتْ في الفخّ الذي لم تتوقّعه.

(يا ويلك يا صفيّة لو عرفك!).

حين اقترب منها وقف واستغفر ربّه مرّتين، حدجها بنظراته الملتهبة مُحاولاً التعرّف عليها، حين أخفق دنا منها وسألها:

ـ ماذا تفعلين في مثل هذا الوقت؟ من تكونين؟

خرساء لا ينبض لسانها، خشيت أن يعرف صوتها وهي التي زجرته يومًا.

لم يحتمل صمتها، صرخ بها:

ـ هيّا يا بنت الشيطان على بيتكم.. الله لا يستر عليكم من حريم هايتات.

لم تصدّق أنّها نفدت بجلدها من الفخّ المُفاجئ. ركضتْ وهي تحسب أنّه واصل طريقه إلى المسجد. لكنّه ظلّ واقفًا ليكتشف البيت الذي ستدخله، وحين ابتعدت حثّ خُطاه ولحق بها. أدركها قبل أن تدسّ جسدها في الدريشة. أمسك بعباءتها فحاولت الفرار لكنّ العباءة خانتها وانزلقت فانكشف الجسد المُعرّى إلّا من غلالته

الشفّافة. صرختْ صرخة ذابلة.. رفع العباءة وحذفها عليها:

ـ أعوذ بالله ممّا أرى، هيّا استري نفسك.

تلفّعتها بسرعة واتّجهت نحو الدريشة، فأمسك بذراعها وألقى بالسؤال الذي أربكها:

ـ هذا البيت مهجور من شهور، ليش تدخلينه؟

لم تقو أن تردّ... لا تريد أن يعرفها، ولا أن يشمّ رائحة العرق من فمها، حاولت أن تتملّص منه لكنّه دنا من الدريشة وحجبها بجسده وهو يكزّ على أسنانه:

ـ ارجعي من حيث جئت وإلّا سحبتك إلى المخفر وسلّمتك إلى الشرطة.

اخترق الرعب كلّ عظامها.. هي الآن تواجه ورطتها الكبيرة، إمّا أن تعلن عن نفسها أو يفتضح أمرها في المخفر. ارتمتْ تحت قدميه وناحت:

ـ استر عليّ يا مُلّا.. أنا صفيّة بنت عيسى.

يا لها من فجيعة كبرى أرجفته وأوقدت غضبه. ركلها ركلة عنيفة:

ـ حسبي الله ونعم الوكيل، أين كنتِ؟ قولي بسرعة.

لقد انكشف أمرها، فلم تخشَ أن تعترف:

ـ كُ.. كُنْ.. كُنت في بيت الوناسة.

هبط وجه المُلّا من الذهول، لم يصدّق ما سمع، واشتعلت

نيرانه حين شمّ رائحتها فتلثّم بغترته:

ـ وبعد شاربة المكروه الحرام؟ وصلت بك المواصيل أن تصيري (ق...)؟

كرّرت رجاءها:

ـ الله يخلّيك يا أبو صالح استر عليّ.

ـ الله لا يستر عليك أنتِ وأمثالك.

ـ علشان خاطر أبوي.

ـ كان الله في عون أبيك حين يدري. سيموت الرجل من قهره.

توسّلته:

ـ لا تقل له.. وأوعدك أنّني سأتوب.

نظر إليها بازدراء وأمرها:

ـ قومي ادخلي.. عساك في نار جهنّم.

أكمل طريقه إلى المسجد ورجفاته تكاد تطيحه وتُبعثره فوق التراب وعقله لا يحتمل وجيعته:

(معقول يا صفيووه! وين أمّك عنك؟ ما الذي تفعلينه بأبيك الطيّب المستور؟ حسبي الله ونعم الوكيل).

لا يعرف كيف توضّأ ولا كيف صلّى، نتع نفسه من أرض المسجد حتى إنّه لم يقرأ صفحات من القرآن كعادته. شحذ خطاه

كمن يفرّ من أشداق أفاع تلاحقه، حين وصل إلى الدريشة اقترب وأطلّ منها، تصوّر أنّها ما تزال لابدة، هزّ رأسه كمن نوى أن يفعل شيئًا واستدار عائدًا إلى بيته.

في الصباح جاء بالعمّال وأدواتهم وأمرهم أن يسدّوا الدريشة بالإسمنت.

* * *

مضت عليها أربع ليال حالكة لم تجرؤ أن تخرج.. احترست لأنّها تدرك أنّ المُلّا لن يتركها بحالها، سيراقب الدريشة ويتخفّى حتى إذا خرجت انتصب أمامها وفي لجّة غضبه قد يضربها قبل أن يأمرها بالدخول.

رغبات جسدها لم ترأف بها.. عادت أعنف ممّا كانت، كلّ شيء يمكن أن يخزّنه الجسد ليقتات عليه في أحلك الظروف إلّا اللذّة التي تنتهي لحظة الاكتمال، هي الآن بطغوة حاجتها لمن يغرقها بشلّال العسل ويدقّ أعناق الدود الذي يهرش بها كهرش الأظافر المسنونة.

اشتاقت لبيت الوناسة، وللرجال الذين يقتاتون من فتنتها وتقتات من عصائرهم. حتى ذلك الجميل الذي آذاها أوّل مرّة بطريقته الشاذّة والتي اعتادتها بعد ذلك تمنّته وهي تتذكّر رقّته وجمال عينيه. كلّ شيء أصبح ماضيًا. وفي حشرجة الحرمان فكّرت أن تهرب قبل أن يعود أبوها وتقيم في بيت هناء. اختزنت الفكرة واستعدّت لها، لم تفكّر بأمّها التي ستواجه نيران أبيها، ولا بهلال المُعلّقة روحها به، كانت في بضعة الأيّام التعيسة التي تعانيها

قد ابتعدت عنه وشحّت عليه بالحنان الذي اعتاده منها، وبالحكايات التي ظلّ يعشقها رغم أنّه زحف إلى الثالثة عشرة من عمره. كانت كمن تريد أن تعوّد نفسها على فراقه.

كأنّها مجبولة بدم الشيطان. تجاوزت رعب تلك الليلة التي اقتنص المُلّا عودتها، وتناست انكبابها تحت قدميه ليستر عليها، وضربت بوعدها له أن تتوب بصخرة العناد والتحدّي.

حين أزفّ منتصف الليل تزيّنت وتسلّلت لتخرج تسبقها فورة جسدها ودبيك قلبها. لكنّها اصطدمت بالجدار الإسمنتيّ. تهاوت.. سكبت الدموع وهي تشتم المُلّا بأسوأ الشتائم. الآن أدركت أنّ مواسم حرّيّتها ووناستها قد انتهت.

* * *

بدأت بشائر عودة الحُجّاج تهلّ... تزيّنت الأبواب والأسطح بالأعلام وسعف النخيل، وبدأت روائح الولائم تفوح من البيوت التي وصل حُجّاجها. أمّها أيضًا زيّنت البيت وجهّزت كلّ ما يلزم لواجب الضيافة للمهنّئات بعودة أبيها سالمًا. هي تراقب فرح أمّها بلا ذرّة من فرح. كان الثقل يرزح على قلبها منذ أن وقعت في فخّ المُلّا وظلّت تشرب من ضروع الخوف ما جعلها شاحبة نحيلة. كانت الجمرات في داخلها تتّقدُ وتوشك أن تنفجر براكينَ. خائفة.. شاردة فيما ينتظرها إذا لم يبتلع المُلّا لسانه ويستر عليها. تعرف أنّ ذنبها هذه المرّة كبير، فأيّ عقاب سيكون بحجمه؟ ليس غير الذبح ليغسل دمها العار عن أبيها.

(ليته لا يعود).

لكنّه عاد. . . ومثل المُتربّص لها سأل أوّل سؤال لأمّها وهو يُشير نحوها:

ـ ها. . . ما أخبار صفيّة؟

هاشّة باشّة ردّت:

ـ الحمد لله. . كانت مُطيعة ولم تفعل أيّ شيء يُغضبك.

تأمّلها. . رآها ذابلة مُصفرّة:

ـ ما بالك كالمسلولة؟ مريضة؟

أحنت رأسها:

ـ لأ. . يُبه.

تدخّلت أمّها لتكذب:

ـ كانت تحاتيك[1] وتدعي لك بالسلامة.

ـ وأنا دعيت لها بالهداية، وبولد الحلال.

دخلت إلى الغرفة. . بكت بحرقتها ثائرة:

(لا أريد دعوتك، تريدني أن أحرم نفسي من السعادة. ولا أريد (ولد الحلال). لا أريد أن أكون ملك أحد مثلك، لن أخاف بعد اليوم).

* * *

(١) تحاتيك: أي تنشغل عليك.

اليوم العصيب

ثلاثة أسابيع مضت على عودة عيسى من الحجّ. صفيّة رغم عذابات الحرمان ترقد مطمئنة مرتاحة البال تُسدي بداخلها الشكر للمُلّا الذي ستر عليها. لكنّ المُلّا كان يتقلّب على جمر صبره ويتحرّج من مفاتحة أبيها. فهو لا ينوي أن يسكت، إذ يخشى الله الذي سيحاسبه لو تكتّم عنها، ومن يدري أنّها لن تواصل زللها حتى تفوح روائحها وتُزكم أنف أبيها بالفضيحة!

في تلك الليلة نظر إلى عيسى وهو يجلس بين الرجال في الديوانيّة نظرات أسف وشفقة. الرجل يبدو في حال مُريح فهل يخبره ويعصف براحته؟ هل يستر على البنت؟ أو (يبُطّ الجربة) ويُغرقه بمائها الفاسد؟

كيف سيصارحه؟ ومن أين يبدأ؟ كم هو صعب عليه أن يواجه الرجل بزنى ابنته، قد يتوقّف قلبه ويخرّ من الفجيعة وتنجو الداعرة من العقاب.

اتّكلَ على الله.. حين قام عيسى ليغادر لحق به وسار معه

حتى انتصف بهما الطريق، أوقفه وبصوت متهدّج قال:

ـ يا بو هلال.. عندي موضوع سوف يزعجك.

ضحك عيسى:

ـ وما دام سيزعجني لماذا تقوله؟

لم يقدر أن يرفع إليه نظره، أرخى عينيه:

ـ لأنّ الموضوع يخصّ أهل بيتك.

فغر عيسى فمه غير مُستوعب ما سمعه، أمسك المُلّا بذراعه وكانا قد اقتربا من باب المسجد:

ـ تعال ندخل.

واجمًا استسلم.. ودخلا.

بادره عيسى:

ـ يا مُلّا.. أفزعتني، ما بهم أهل بيتي؟

هزّ رأسه وهدّأه:

ـ تماسك يا عيسى، الأمر خطير.

لم يقوَ على الصبر وبدأ يرتجف:

ـ لا تُلوّعني.. قُل بسرعة.

ابتلع المُلّا ريقه ودفع بالكلمة وكأنّه يدفع بعقرب سامّة:

ـ ابنتك...

شهق عيسى شهقة ضارية كاد يختنق بها:

ـ صفيّة؟!.

ـ الله يعينك على ما ابتلاك. صفيّة زلّت.. وتروح (بيت الوناسة).

جأر غير مُصدّق.. وانذرّت في عينيه غيمات من رماد، صوته القاحل يتجشّأ سؤاله:

ـ كيف عرفت؟

ـ شفتها بعيني راجعة في الفجر، لابسة هدوم عارية، وريحة حلقها تفوح بالمشروب الحرام. حقّقت معها فاعترفت وطلبت منّي أن أستر عليها، لكنّي يا عيسى أخاف من ربّ العالمين، وأخاف عليك من الفضيحة بين الناس، ويشهد الله كم كان الأمر صعبًا عليّ لكن لازم تعرف.

الطعنة حادّة، تجرّع دمها الحارّ.. وابتلع نصلها.. لطم وجهه عدّة لطمات وبصعوبة انسلّت الكلمات من لسانه:

ـ يا ليت تنشق الأرض وتبلعني.

ـ سامحني يا عيسى.. أدري أنّها مصيبة كبيرة لكن هذا أمر لا ينسكت عليه.

مخضوضًا من الصدمة سأله:

ـ من يدري غيرك؟ عسى ما قلت لأحد؟

ـ معقول!! هذا شيّ ما ينقال، بس أنت أبوها ولازم تدري.

أراد أن ينتزع نفسه ليقوم فتهالك. أمسك به المُلّا:

ـ لا تروح البيت الليلة، تعال نام عندي والصباح رباح.

ألصق كفّيه على وجهه وأجهش بحرارة وبصوت أنهكته الدموع قال:

ـ ما عندي حيل.. أحسّ بقلبي وارم وجسمي مثل الخرجة.

تألّم المُلّا لحاله، أخذ يواسيه بكلمات يُدرك أنّها لن تُبرّد جرحه المبقور ولن تمتصّ دماءه المسفوحة، رآه يترنّح في مشيته، حاوطه بذراعيه:

ـ سأوصّلك إلى البيت، أخاف أن تقع.

أفلت نفسه منه وكأنّه يُفلتها من جاثوم ربض عليه:

ـ لا تُكلّف نفسك، البيت قريب.

ـ سمِّ بالرحمٰن يا عيسى ولا تزعج أهل بيتك، الدنيا ليل ومن أصبح أفلح.

سار مُتأبّطًا مُصيبته ومهانته، لا يدري أين تقوده قدماه، هل إلى البيت أم إلى الجحيم! روحه معطوبة، قلبه كالبركة الطافحة بروائح عارها، جسده مرضوض بألف حجر وخطواته تهرس التراب وتكاد تغوص فيه.

دخل إلى الدهليز مُنغمرًا بذهوله، منقوعًا بعرقه، يرتعش ارتعاشات مُتلاحقة كأمواج في بحر ثائر. يئنّ أنّات مُترعة بفيض روحه المُتّشحة بظلمتها: (ليتني مُتّ قبل هذا اليوم).

* * *

ظلّ جالسًا في الدهليز واحتشاد الغضب في داخله كالتيّار الجارف يُطوّح به من فكرة إلى أخرى. ماذا عليه أن يفعل الآن؟ هل ينقضّ عليها وهي نائمة ليُطوّقُ عنقها بيديه ولا يعتقه إلّا بعد أن تطلع روحها؟ أم يقذفها في القليب ويرتاح بعد أن يسمع ارتطامها بالقعر؟ أم يتوكّل ويعقرها من الوريد إلى الوريد ويرقص على دمها المهدور؟

تعوّذ بالله من شيطان غضبه، واستدعت ذاكرته حكاية التاجر الذي لم يدرأ الفضيحة عن نفسه حين قام بجزّ عنق ابنته أمام المَلأ مُتبرّئًا منها، هي ماتت وارتاحت وهو أمضى بقيّة عمره في السجن حتى مات.

ظلّ مُستفردًا بنفسه ليهدأ ويُقلّب الأمور باحثًا عن مخرج لمُصيبته. ورغم كلّ الذي يعانيه أذعن لصوت عقله:

(لا أريد أن أكون قاتلاً وأدخل إلى السجن بسببها، لا أحد يعرف بالحكاية غير المُلّا وقد ستر عليها ولم يُخبر أحدًا، لا بدّ أن أتجنّب الفضيحة).

سار إلى غرفته.. فتح بابها بعنف. هبّت ثاجبة وقد أخافها دخوله المُفاجئ واستبقته بالسؤال:

ـ ليش تأخّرت؟ ما لك بالعادة!

لم يردّ.. فاجأها اصفرار وجهه وتجهّمه.. اقتربت منه:

ـ ما لك يا عيسى شايل حمل الدنيا على راسك؟

بصوت واهن مرتجف:

ـ حملي ثقيل، تعجز (البعارين) عن حمله.

ارتابت:

ـ يا ساتر.. أيّ حمل؟

التفت نحوها.. الحسرة تحرث بقلبه:

(ضاعت هيبتي أمام المُلّا، والآن إن كان بقي ولو فتاتٌ منها سيضيع، لكنّها لا بدّ أن تعرف).

كان يتمنّى أن ينقضّ عليها.. أن يصرخ بملء صوته.. أن يضربها وهو يُحمّلها نتيجة إهمالها للبنت.. لكنّه لم يدرِ كيف تمالك ذلّته وغضبه وكأنّ الله مسح على قلبه وعقله، جلس أمامها محنيّ الرأس دامع العين وقال:

ـ اسمعيني زين...

* * *

لأنّه لم يُطفئ حريقه.. ظلّ أسبوعًا وهو في حال مُريع. يتلظّى في أتونه، حابسًا نفسه في الغرفة لا يخرج منها، لا يجالس أهل بيته على طعام ولا يكلّم أحدًا. استعصى عليه النوم، سواد الدنيا يُغرقه وهو يتخبّط في أفكاره وتُمرجحه الحلول التي يقترحها عليه عقله المُشوّش، لكنّه لا يجد منها ما يشفي غليل روحه.

الأيّام تفرم بقلب ثاجبة ولا تجرؤ أن تفتح معه باب الكلام أو تُشرع نافذة لسؤال، كلّ ما فعلته أن لبّت أمره القاسي:

ـ أخبريها أنّني دريت بأفعالها من المُلّا. ودواؤها عندي.

لا تدري لماذا سألته:

ـ وهلال..؟

عَنَفَ بها:

ـ ما لك شغل بهلال أنا من سيخبره.

شدّت كفّه وقبّلتها متوسّلة وظلّت تصكّ عليها:

ـ واللي يطوّل عمرك يا عيسى، أترك هلال بحاله بعده صغير.

سحب كفّه بخشونة وصرخ بها:

ـ ما تجوزين من طبعك، هذي صغيرة وهذا صغير. دلالك وغفلتك ضيّعت البنت.

رغم غضبه احتجّت:

ـ تعرف كم يحبّ هلال أخته ما في داعي تعوّر قلبه.

ـ قلت لك ما هو شغلك. عساكِ العوار اللي ما تقومين منه.

عشعش الخوف في قلب صفيّة، اعتصمت بجدران الغرفة تهيم في توقّعاتها:

(ما هي الميتة التي يضمرها لي؟).

كان الانتظار أمَرُّ وأشدّ وطأة عليها من أيّ ميتة، هل يحتاج الأمر إلى تفكير طويل؟

هل سيذبحها؟

لا.. لن يفعل لأنّ كلّ الناس سيعرفون أنّه أهمل ابنته وتركها لغواية الشيطان.

هل سيُلقيها في الجُبّ؟

ممكن جدًّا.. لا أحد سيدري وكم من بنتٍ غيّبها القاع السحيق!

لماذا لا يفعل إذن؟ هل يبحث عن وسيلة تُجنّبه إثم القتل؟

مثل صخرة عاتية وقع الأمر على هلال الذي استمع لأبيه ورأسه خفيض من الخجل، لا يستوعب الحقيقة الفظيعة ولا تحتملها سنواته الثلاث عشرة. كان فقط يشعر بالأسى أنّ صفيّة كذبت عليه بصعودها إلى السطح، وأنّه ابتلع الكذبة ولم يحاول أن يراقبها. فلو فعل لكان جنّبها هذا المصير المشؤوم. تذكّر كلام أبيه عن الشرف الذي عرفه الآن وتأسّف أنّه لم يُطاوعه وينتبه لسلوك أخته.

تجرّع كأس السّمّ، وسكنت اللوعة قلبه. كان يدرك أنّ أباه سيذبح أخته هذه المرّة لكنّه رغم وجيعته لم يشعر بالحقد عليها، كان حزنه من المصير الذي ستلاقيه أكبر من الكراهية. ارتداه الخوف الذي كان كالرماح تنغرز في كلّ عضو بجسده، وشعر بضعفه وقلّة حيلته ليحميها ويردّ عنها العقاب.

ستموت صفيّة وستسكن الأحزان قلبه الصغير المُمتلئ بحبّها حتى آخر يوم في عمره.

* * *

ضاقت بعيسى كلّ السّبل.. لم يجد بابًا ولا نافذة ولا حتى خُرم إبرة لينفذ منه إلى حلّ يستأصلها به من البيت دون جريمة ولا فضيحة. اضطرّ أن يبحث عمّن يساعده فلم يجد غير باب المُلّا يطرقه وهو خذلان وخجلان فقد يجد عنده المفتاح ليفكّ صواميل أزمته:

ـ لا أريدها أن تعيش.. ولا أريد أن أكون قاتلاً.

برقت الفكرة في ذهن المُلّا:

ـ ما رأيك أن تفعل كما فعل (فلان) هل تذكر؟

عصر رأسه:

ـ والله يا مُلّا لم يعد فيني عقل لأتذكّر.

ـ أنا أذكّرك.. فلان سلّم ابنته للحكومة، سجنها وارتاح منها.

بفرح كمن اصطاد الشمس والقمر:

ـ الله ينوّر عليك.. هذا أفضل حلّ.

نهض ليقوم فاستمهله المُلّا:

ـ يجب ألّا يعرف أحد.

فطن لحيرة أخرى:

ـ كيف يا مُلّا؟ الديرة صغيرة والناس فاتحة أذونها وعيونها.

ـ لا تقلق.. أنتم لكم أقارب من بعيد في البحرين خلّي أمّها تقول إنّ واحد بحريني خطبها وإنّك ستسافر بها إلى هناك.

قام يُقبّل رأس المُلّا ويُكثرُ له من الشكر. لقد أنقذه من ورطته الكبيرة.

* * *

عاد إلى البيت وقد سكن روحه كثير من الهدوء بعد أن تخفّف من الحمل الذي ربض عليه. نادى ثاجبة، جلست أمامه وكلّ

جسدها يعصف حتى رموش عينيها. نظر إليها وخرجت الكلمات من فمه كما السهام:

ـ أنا خلاص قرّرت أن أتخلّص من صفيّة.

كفّاها تعتصران عرقهما وقد غرقت في مخاوفها:

ـ ستذبحها؟

ـ لأ.. وجدت الحلّ المناسب.. سأسلّمها للحكومة تسجنها وأرتاح.

لطمت على صدرها:

ـ ماذا تقول يا عيسى؟

ـ أقول الذي لازم يصير.

ـ تحطّ بنتك في السجن وتدفن شبابها؟

ـ شبابها ما جاب لنا إلّا العار. خلاص أنا قرّرت: إمّا السجن أو الموت.

بكت وتوسّلت:

ـ تحرمني من بنتي وأنا حيّة؟ والله أموت من القهر.

بقلب منزوعة منه الرأفة:

ـ تستاهلين الموت.. همّلتيها وأنا غايب حتى خَربتْ.

* * *

إلى السجن

يُطلقُ الله نهارًا لا يُشبه كلّ النهارات. نهار فقد لونه، كان الطوز ينهال كالدم الأحمر. حزينة هي السماء كأنّها تنبئُنا بالعاصفة. كان أبي قد نوى ورأسه اليابس لا يكسره أعتى قدّوم.

بعد أن تناولنا فطورنا قال لأمّي:

ـ جهّزي بقشة هدومها، سآخذها اليوم.

لم أعرف إلى أين سيأخذها لكنّني توقّعتُ أنّه سينفذ بها العقاب. لن يتنازل عن غسل عاره، وأمّي تعرف أنّها مهما توسّلت وانحنت على قدميه تُقبّلهما، فلن يرحم قلبها ولا دموعها المختلطة بذرّات الغبار.

قامت أمّي وهي تشهق بدموعها واتّجهت إلى غرفة صفيّة.

نظرتُ إلى أبي وقد تحوّصلتْ اللقمة في بلعومي، ازدرتها مُكرهًا وسألته:

ـ إلى أين ستأخذها؟

بلا تردّد ولا رفّة عين:

ـ إلى السجن.

بفزع صرخت:

ـ ليش؟

احتدّ أبي:

ـ وتسأل ليش؟ نسيت أفعالها؟ السجن أستر لها ولنا.

قبل أن أفتح فمي، برقت عيناه باللهب وأكمل:

ـ أم تريد أن أقتلها وننفضح؟

تقيّد لساني وقمتُ من أمامه. في غرفتي انتابتني حالة من الدوار والارتعاش. ترنّحتُ والجدران تقذف بي وأنا أكتم صرخاتي التي لا أريد أن يسمعها أحد:

(آآه يا صفيّة... آآه يا صفيّة... سيحرمك أبي الظالم من الحياة ويحرمني منك. كيف سأحتمل غيابك؟).

نزفت دموعي وكأنّني أنزف دم شراييني. وفي قلبي أنزف اللعنات على أبي.

* * *

قبل أن تعدّ أمّها البقشة حضنتها وبلّلتها بدموعها. كانت صفيّة ترتعد وهي لا تدري ما النيّة المُبيّتة لها، وقالت بصوتها المجروح:

ـ هل سيذبحني؟

لم تجب أمّها. فقد أغرقها نشيجها. وألقت صفيّة بسؤال آخر:

ـ هل سيرميني في القليب؟

أشفقت الأمّ على روح ابنتها المُضعضعة ووجهها الذي سكنته صفرة الموت، أجلستها وجلست:

ـ أبوك لن يذبحك ولن يرميك في القليب هو يريد أن يؤدّبك لهذا سيأخذك إلى السجن.

شهقت صفيّة:

ـ السجن؟

باستسلام معجون بطعم الألم:

ـ ما باليد حيلة يا صفيّة أنت تعرفين عناد أبوك وقسوته.

وبصوت يحاول ذرّ الأمل:

ـ كلّها سنة أو سنتين وتطلعين.

نظرت إليها صفيّة وهي تشكّ بكلامها:

ـ بس سنتين؟ وأنتِ تصدّقينه. سيتركني كلّ عمري هناك ويمكن أموت.

الأمّ مثل ورقة هشّة في فكّ الريح، تحضن صفيّة التي تكاد تتكسّر بين يديها، ودموعهما تمتزج بملوحتها لكنّها لا تجبر الجروح.

سحبت ثاجبة نفسها، وقفت غير متوازنة ومن بين سحبات النشيج:

ـ سأجهّز بقشة هدومك، سيأخذك الآن.

سدرت بالنشيج وهي تراقب أمّها تُخرج بعض الثياب وتحشوها في البقشة.. قبل أن تحزمها أسرعت صفيّة إلى

الصندوق، نكشت قاعه واستخرجت غترة حسين المطويّة ودسّتها من طرفٍ مفتوح من البقشة. لم تفهم أمّها ولم تسألها فما كان يشغلها غير مصير ابنتها.

* * *

(ارتدت أختي العباءة والبوشيّة، وحملتْ بقشة ليس فيها غير القليل من الثياب وكثير من الوجع. التصقتْ بأمّي مثل دجاجة نحرتْ السكّين جزءًا من عنقها وتركتها تُفرفر ولا تقوى على الموت.

أمّي تزفر رياح قلبها دموعًا، لكنّ الريح لا تهزّ شعرة في قلب أبي المتحجّر. يمشي نحو الدهليز وهو يضغط على ذراع صفيّة بكلّ قوّته. أصاب أمّي الهلع!! هل تتركه يقطع شريان قلبها؟ هل تحتمل غياب حبيبتها صفيّة؟

ركضتْ نحو الباب وبكلّ ذعرها استندت إليه وهي تفتح ذراعيها بطولهما رافعة رايات الرّجاء:

ـ حرام عليك.. ارحم قلبي.

ـ ما خرّبها إلّا رحمة قلبك.

ـ جرّبها والله لن تعصى لك أمرًا بعد اليوم.

ـ لا تحلفين بالله.. خلاص (فات الفوت وما ينفع الصوت).

اقترب من أمّي المُتشبّثة بالباب، دفعها دفعة قويّة، لكنّها تحاملت ودفعته بدورها وأمسكت بصفيّة محاولةً إعادتها إلى الحوش لكنّه كان الأقوى فاستعادها مُتّجهًا بها إلى الباب وأمّي تهدر بالصراخ الذي يضيع مثل (الضرطة في سوق الصفافير).

مُزمّلة أختي بعارها وألمها. يسوقها إلى قفار السجن ويترك قلوبنا سجينة حزننا. قبل أن يُغلق الباب التفتت صفيّة نحونا، دمعها السائب يَسِحّ على وجنتيها، ويلمع من خلف بوشيّتها. ودّعتنا بنظرة يائسة ونطقت بصوت ابتلعت رنّته غرغرة دموعها:

ـ لا تنسوني.

خرج بها... هانت عليه روحها الفتيّة، شابّة جميلة بسنواتها الستّ عشرة، تخرج إلى حيث سيذوي عمرها هناك، عمر كان الأجدر أن تحتفي به وتفرح مثل كلّ البنات. لكنّه تهاوى مثل الثمرة التي لم تستوِ بعد.

شعرتُ بقلبي ينخلع من صدري، وسؤال كالمسمار يعلق في حلقي:

(هل سأراها بعد اليوم؟).

لعلّ السؤال ذاته دار برأس أمّي فدارت بها الدنيا وسقطت مغشيًّا عليها، ومنذ ذلك اليوم تكالبت عليها الأمراض.

* * *

بعد ثلاث سنوات من دخول صفيّة إلى السجن، بدأت أمّي تلحّ عليّ أن أتزوّج لتعوّض غياب ابنتها بأولادي وتجد من يُعينها على أعمال البيت، كنتُ صغيرًا في السادسة عشرة من عمري وقد التحقت بالمدرسة المباركيّة وشغفتُ بالعلم. لم أوافقها واحتملتُ حزنها وصرتُ أساعدها بعد عودتي من المدرسة، أنظّف البيت، أطبخ ما أستطيع طبخه، أغسل الثياب وأنشرها في زاوية الحوش. كنت قد كرهت السطح الذي بات بأمرٍ من أبي سجنًا لأختي،

وسقوطًا لولا رحمة الله بها لكانت ماتت.

لم يعجب أبي الذي لا يُحرّك ساكنًا أن أقوم بأعمال البيت صار يسخر منّي:

ـ صاير مثل الحُرمة.

ذات يوم أمطرني بنظرات باردة وتظاهر بأنّه يُقدّم لي النصيحة:

ـ تزوّج يا هلال.. ريّح أمّك وريّح نفسك.

كنت أتمنّى أن يموت أبي قبل أمّي التي توفّت بعد أربع سنوات من غياب صفيّة. ماتت بحسرتها بعد أن عانت كثيرًا. شاب شعرها وضعف بصرها من كثرة البكاء، هرمتْ ولم تعد قادرة على المشي، لكنّها تُصارع التواءاتها وتقوم مُتعكّزة على ضآلة جسدها وكومات حزنها. لم يرحم أبي حالها، طلبتُ منه أن ننقلها إلى المستشفى فهزئ منّي:

ـ ما عليك منها.. أمّك أقوى منّي ومنك.

ـ يا بُبَه ما تشوف حالها؟

ـ أقولك ما فيها شيّ. أمّك (تتعيلث)[1] حتى أطلّع صفيّة. لكن والله ما تشوفها طول ما راسي يشمّ الهوا.

* * *

ارتدت أمّي كسوة الحزن وظلّت حبيسة غرفتها، تهتف باسمكِ ليل نهار، وكلّ يوم تُخرج خصلة شعركِ التي احتفظتْ بها يوم قصّه أبي. تمشّطها وترشّها بماء الورد وتخفيها تحت مخدّتها، وفي لحظات

(١) تتعيلث: تتذرّع بأسباب.

كالغياب كانت تضحك وكأنّها تسمع صدى صوتك وتسألني:

ـ هل تسمع صوت أختك؟ إنّها تغنّي.

وبكفّين فقدتا طراوتهما تبدأ تصفّق وتطلب أن أصفّق معها فأفعل وقلبي يصفُقُ حنينًا لكِ. كانت في بعض الليالي التي يجافيها النوم فيها، تصرخ صراخًا ناشئًا من حرقة روحها ثم تهدأ وتصير تحكي لكِ حكاياتٍ غير مُترابطة وهي تُمسّد على المخدّة التي تضعها بحضنها وكأنّك راقدة عليها، وأحيانًا تناديك لتُهمّزي ساقيها فأقوم بذلك وأنا أستعيد مشهدكِ وأنت تفعلين. كانت تلك اللحظات التي تتخيّلك بها أمّي وتحلم أنّكِ معها من أقسى اللحظات عليّ، وأحيانًا كانت تُذكّرني بكِ وتسرد عليّ بعض شقاواتنا مُتصوّرة أنّني قد نسيتكِ ولكي أطمئنها أصير أحكي لها تفاصيل أخرى لأبعث السرور إلى قلبها ولتتأكّد أنّني لا يمكن أن أنساكِ.

في لحظات وعيها لم تكن لها من أمنية إلّا أن تراكِ. وطوال سنوات غيابك كانت لا تكفّ عن التوسّل لأبي:

ـ واللي يسلّمك خلّيني أشوفها ولو من بعيد.

لكنّه يُريقُ شماتته أمامها ودعواه:

ـ إن شالله تموت وأرتاح من لجاجتك.

وهي على فراش الموت طلبت منه بحرارةِ دموعها أن يُشفق على خاتمتها، وبصوت خدّرهُ الثقل ناشدته:

ـ أشوفها يا عيسى قبل أن أموت.

كنت أشفق عليها.. أبكي وأنحني أقبّل يديه رغم كراهيّتي لهما. أتوسّل إليه أن يفعل رحمة بها لكن قلب الصخر لا يلين. وكأنّه يشمتُ برغبتها:

ـ اعتبريها ماتت وريّحي روحك.

الموت وهو يتمكّن منها منحها لحظة صحوٍ استبسلت بها وشدّت على يدي ونطقت بوصيّتها الأخيرة:

ـ لا تترك أختك في السجن، إذا مات أبوك أخرجها منه.

لم أستطع إلّا أن أعدها، وكنت صادقًا بوعدي.

أمّي الغفورة دائمًا لم تغفر لأبي الذي كان يجلس على ركبتيه ويطلب منها أن تنطق بالشهادة، لكنّها بعينيها المُحتقنتين بغضب شاسع قذفت دعوتها في وجهه:

ـ الله ينتقم منك يالظالم.

تشهّدت و... أغفتْ.

لم يُبال أبي بدعوتها عليه، طقطقت عظام ركبتيه وهو يهُمّ لينهض، كان يُبرطمُ بكلمات خشنة. ربّما كان يشتمها أو يحمد الله أنّها فارقته؟

وأنا أدفن أمّي تحوّطتُ كيّ لا يلمحني أحد ودسَسْتُ تحت رأسها خصلة شعر صفيّة، التي احتفظت بها.

بكيت كما لم أبكِ يومًا، وكان الندم يُلطّخني بسواده لأنّني لم أفْرحْ قلبها بعيالي.

* * *

تأخّر ملاك الموت على أبي، امتدّ عمره طويلاً، انحنى ظهره، تقوّست ساقاه، عمشتْ عيناه، يمرضُ ويشفى لكنّه لا يموت. مثل جذع شجرة صلبة يقوى على كلّ الفؤوس ويحارب الريح. كلّ شيء فيه ذوى إلّا عرفج قسوته. لم أعُد أطيق وجوده في البيت، ولا وجهه الذي لا أرى فيه غير ظلمه لأمّي ولصفيّة. لا أجالسه ولا أعينه حين يحتاج إلى العون. كانت تكفيه عصاه التي تهرّأ بها جسد أختي ولم تهترئ.

وحيدًا بلا أمّي.. أبتئس وقد ورثت حزنها، أردت أن أخرج من نفقي إلى حياة جديدة، فتزوّجتُ لا رغبة في الزواج ذاته بقدر ما كنت أريد أن أنجب طفلتين أسمّيهما باسمَيْ أمّي وأختي.

اعترضت زوجتي على اسم ثاجبة:

ـ قديم.. ويصعب نُطقه، حين تدخل المدرسة ستضحك عليها البنات.

لم أقبل باعتراضها وقلت حازمًا غير مُبالٍ بمشاعرها:

ـ لم أتزوّجك إلّا لأسمّي اسم أمّي الغالية.

أمّا أبي الذي اقترب من الموت فقد صاح بوجهي:

ـ أنا ما صدّقت أرتاح من هذا الاسم فتأتيني به لتغيظني؟ غيّره.

بحزم قلت:

ـ لن أغيّره وستبقى ذكرى أمّي حتى لو كرهتَ هذا.

كره أبي ثاجبة الصغيرة، لم ينظر إلى وجهها ولم يحملها. ظلّ يدعو عليها بالموت. وحين أنجبتُ الثانية وسمّيتها صفيّة جنّ جنونه، وقال مُحتقرًا وجودها:

ـ باكر تصير فاسدة مثل أختك.

قهرني فقلتُ في سرّي:

(إن شالله يأخذك الموت قبل أن تشوفها كبيرة).

أخيرًا دنت ساعة أبي.. طلب أن أنقله إلى المستشفى، أردتُ أن أنتقم منه كما فعل بأمّي وأتركه يموت في البيت، لكنّ زوجتي التي خافت من رؤيته ميّتًا، أصرّت أن أنقله إلى المستشفى. تركته هناك ولم أزره إلّا قليلاً وحين أكّد لي الطبيب أنّه على شفا الموت لازمته الأيّام الثلاثة الأخيرة.

كنت أراقب موته بلا مشاعر ودّيّة، بل كنتُ أستعجل ملاك الموت ليغيّبه عن وجهي. لم يصفُ قلبي عليه ولم أحزن لحاله، كنتُ ممتلئًا بالكراهيّة له، ولم أغفر له ما فعله بأمّي وبأختي.

وهو في آخر أنفاسه لم يشأ أن يموت قبل أن يفحّ لي بوصيّته:

ـ إيّاك أن تُخرج أختك من السجن.. دعها تموت هناك.

في داخلي همستُ حاقدًا:

ـ مُتْ أنت وسترى كيف لن أنفّذ وصيّتك أيّها الجبّار.

* * *

الأوراق

تمنّى لو أنّهم لا يعزّونه. كانت أكفّهم تسقط في كفّه الباردة وهو يتمنّى لو ينتهون ليخلو إلى نفسه ويُحاور الميت.

ابتعدوا... وحيدًا هو الآن...

قرفص بجانب القبر، انتشل حفنة من ترابه الرّطب، فركها ثم قذفها مُتمنّيًا لو تصير جبلاً يُخفي القبر ومن فيه. أفرغ ما بصدره من كراهيّة:

(ها أنت وحدك الآن في الظلام.. سيطاردك وجها أمّي وصفيّة. سيحرمانك من رحمة ربّك، سيأتيك (ناكر ونكير)، يُمسكان بقلبك القاسي ويدعكانه حتى يذوب، يقطعان يديك الظالمتين، يفقآن عينيك ويهرسان ما تبقّى منك. أمّا وصيّتك فقد دفنتها معك).

لا حزن.. ولا دمعة واحدة.. كان الفرح وحده يتراقص في قلبه ونداء رحوم يُمرجحُه آتيًا من قبر أمّه:

(لا تنسى وصيّتي.. إذا مات أبوك ف...).

تطغى رائحة الحُبّ على رائحة الموت، يهلّ وجه صفيّة، الذي رآه آخر مرّة وعليه دمعات بلون الدم، وذهول بلون الرّماد.

نفض ثيابه من تراب القبر. وقف وألقى عليه نظرة ستكون الأخيرة، مشى وقد انتشر أمان في صدره، هو الآن حُرٌّ ولن يستكثر الحرّيّة على أخته.

غادر المقبرة وتحرّكت به السيّارة، الجوّ أدكن والسماء مفروشة بأشكال هندسيّة لبعض الغيوم. رغم ذلك شعر بشمس جديدة يفوح دفئُها على الكون وترشّ ريحانها في قلبه.

الطريق يمتدّ أمامه حقولاً مُعشبة، أوراق الأشجار يلاعبها النسيم فتبدو كشعر البنات يهتزّ بخجل مُستقبلاً قطرات المطر التي بدأت بتساقطها الخفيف ترتمي على زجاج السيّارة نقاطًا لم تلبث أن تنفلش وتتكاثر. حرّك مسّاحتي المطر فاندفعتا تطردان الماء فينزلق خطّين إلى الطرفين يُشكّلان جدولين ينسابان ويختفيان.

لماذا تبكي السماء؟ هل تغسل وجه الأرض من مظالم أبيه وأمثاله؟ أم لتبشّره بغدٍ أجمل يطلّ فيه وجه صفيّة على الحياة؟

* * *

فائضٌ قلبه بفرحته وأحلامه إلى حيث هي هناك لا تعلم بعد أنّ سجّانها قد مات. إشارات المرور الحمراء تُعطّله فيلعنها ويشكر الخضراء التي تُفسح له الطريق. وذاكرته التي لم تجرش كلّ ما لبد بين تعاريجها تعود به إلى ذلك الزمن البعيد. يتذكّر وجهها الأسمر الجميل، تحسّر وهو يتخيّل الذي قد تكون فعلته سنوات السجن بذاك الجمال. صرخ وهو يضرب على المقود ويتّخذ قراره:

(سأفرج لأجنحتها المُتكسّرة لتعود وتمارس الطيران).

دخل إلى البيت، صفق الباب صفقة جعلت زوجته تخرج من المطبخ مُستغربة:

ـ هلال..! رجعت بسرعة!.

لم يردّ عليها، أسرع إلى غرفة أبيه. لحقت به فزجرها:

ـ رجاءً اتركيني بحالي.

الغرفة صامتة، مظلمة، تفوح رائحة الدهر منها، تذكّر كيف أصرّ أبوه حين انتقلوا إلى البيت الجديد، أن ينقل كلّ أثاثه القديم رافضًا أن ينام على سرير حديث. وظلّ يفترش الأرض على مطرحه المُتآكل ويحفظ ثيابه بصندوقه الخشبيّ.

لم يكن يُهمّه أن يستعرض حاجات أبيه، كان فقط يبحث عن مفتاح الصندوق الخشبيّ الصغير الذي يُخزّن به أوراقه. فقد يجد بينها الأوراق التي تخصّ أخته. بحث في كلّ بقعة، تعب حتى وجده تحت طرف السجادة، غمرته رعشة فرح. فتح الصندوق فأزّ أزيزًا مبحوحًا، وفاحت منه رائحة الزمن والهجران. سحب كلّ الأوراق، نثرها أمامه وكفّه بعجالة تستعرضها وتبحث عن ورقة بعينها.

فاجأته زوجته بدخولها:

ـ عمَّ تبحث؟

دون أن يلتفت نحوها:

ـ عن الأوراق التي تخصّ صفيّة.

ـ ستحرقها؟

استفزّه السؤال فحنق عليها وهو يواصل تقليب الأوراق:

ـ كيف أحرقها وهي التي تُثبتُ وجود أختي.

مستغربة رشقته بسؤالها:

ـ بعد ثلاثين سنة مرّت، قد تكون ماتت.

أثاره تشاؤمها:

ـ فأل الله ولا فألك، أنا متأكّد أنّها حيّة.

ـ وما الذي ستقوله لبناتك؟ هذي عمّتكم المسجونة لأنّها...

لم يتركها تتلفّظ بالكلمة، رمى بثورته صفعة على خدّها:

ـ تُعيّريني بأختي؟

انخفض صوتها ونطقت:

ـ والله ما قصدت، بس البنات ما يدرون أنّ عندهم عمّة مسجونة.

نظر إلى خدّها الذي احْمَرّ من الصفعة وسالت عليه دمعتها، لم يحاول أن يسترضيها، قال وهو يشيح بوجهه:

ـ سأقول كما قالت أمّي للناس. متزوّجة وساكنة في البحرين. اخرجي الآن.

عاد إلى الأوراق خاشيًا أن يتملّكه اليأس، الحقد يشتعل في قلبه وتُلهب جسده النار، لكن غديرًا باردًا انسكب عليه حين صافحت عيناه الورقة التي تُهمّه. كانت صفراء الحواشي، وخطوطها باهتة أمام عينيه اللتين امتلأتا بالدموع. دقّق بها أكثر فتأكّد أنّها الأوراق الثبوتيّة التي تحمل تاريخ إيداع أخته في السجن. لم يتمالك ارتمى على الأرض وغرق في بكائه وهو يشعر وكأنّ كفّ صفيّة تمسح دموعه.

* * *

الإفراج

(تائقًا لرؤيتها قرّرتُ ألّا أتأخر، كنت أدري أنّ هذا سيُسبّب لي كثيرًا من الألم. وقد تألّمت ألمًا كافيًا، لكنّني اليوم مُلزمٌ أن أحبّ ألمي.. أن أواجهه ولا أتخاذل عن فكّ أسْرها وتنفيذ وصيّة أمّي).

أوقفتُ السيّارة، صفقت بابها بعنف أودّ أن أصفق وجه الماضي بكلّ دكنته وبشاعته. وصلت إلى الباب الحديديّ المُنتصب كمارد مُتأهّب.

نزلتُ.. دنوتُ.. ابتلعتُ آخر دخان من سيجارتي. قذفتها ودُست عليها، طرقت الباب وانتظرت حتى انفتح. قابلني وجه الحارس وبصوت مُحايد:

ـ نعم؟

ـ أريد مقابلة مدير السجن.

ـ المدير غير موجود.

قبل أن يلمح تعكّر وجهي بالحزن كان يُفسح لي:

ـ سآخذك إلى غرفة الضابط المسؤول.

أغلق الباب وتقدّمني فمشيت خلفه وجسدي يعصف.

أما تزال على قيد الحياة أم غيّبها ظلام السجن؟).

(يا ويلك من الله يا أبي لو كانت ماتت قبل أن ترى النور والحرّيّة).

استقبله الضابط بلطف:

ـ خير؟ بماذا أستطيع أن أخدمك؟

باختصار شديد أفخبرتُه عن حكاية أختي وقدّمت له الأوراق التي تُثبت تاريخ دخولها. أوراق صفراء متآكلة الأطراف لكن حبرها لم يتبخّر بعد.

أبديتُ له رغبتي في تسلّم أختي فجاء ردّه مُفجعًا:

ـ لا أستطيع أن أسلّم إليك أختك.

ارتعدتُ وكدتُ أنتحب:

ـ ليش؟ هل ماتت؟

هدّأني:

ـ لا تخف هي بخير. لكن هناك إجراءات لخروجها. يجب أن يصدر لنا الأمر من وزير الداخليّة. عليك أن تُقابله.

ـ هل سيقبل؟

ـ الأوراق سليمة وهذا من حقّك.

توسّلت إليه:

ـ هل تسمح لي أن أراها؟

ـ رجاءً لا تحرجني، ليس قبل أن تتمّ الموافقة من الوزير.

خرجتُ خائبًا.. غشاوة رماديّة تسكن عينيّ. ورغم ذلك كنت أتلفّت في أرجاء حوش السجن أتخيّل أنّني سأراها بثوبها الأخضر المشجّر تلعب الحجلة وشعرها الطويل يتطاير، لكنّ الفراغ ابتلع أمنيتي. فخرجتُ أفكّر بلقاء الوزير. يقولون إنّه طيّب ويفتح أبوابه للناس، يستمع شكواهم ويُلبّي مطالبهم. لن يكون الأمر صعبًا أن آخذ موعدًا. الصعب أن أطلب منه الإفراج عن أختي (البغي) والأصعب لو رفض. ولماذا يرفض؟ ألستُ أخاها ووليّ أمرها الآن؟

سأدخل عليه.. أرتمي على يديه أقبّلهما، أقبّل رأسه وأتوسّله:

(يا طويل العمر أريد أن تأمر بالإفراج عن أختي).

هل يحتاج الأمر إلى مشقّة وتقبيل يدٍ أو رأس؟

* * *

طلبت مقابلة الوزير، لم أنتظر كثيرًا فقد جاء الرّد السريع مُفاجئًا. فرحتُ وتفاءلت:

(يبدو أنّه كما سمعتُ عنه).

استعددتُ للمقابلة.. طرتُ إلى موعدي قبل الموعد. جلست

في غرفة السكرتير أضمّ أوراقي، ورعشاتي حتى أذنَ لي بالدخول.

مَهيبًا كان.. يجلس خلف مكتبه الأنيق، رائحة البخور تفوح منه ورائحة هيل القهوة العربيّة يعبق بها المكان. أحسست بخجل حين وقف بتواضع ومدّ يده يصافحني ويدعوني إلى الجلوس. ابتسم وسأل عن حالي ثُمّ:

ـ طلبك؟

(آآآه.. طلبي! اللحظة التي لا بدّ منها.. الرمح المغمود في صدري.. الورم الذي نبت في حنجرتي).

نكستُ رأسي، كدتُ أجهش لولا كلماته الطيّبة:

ـ إحنا يا ولدي في خدمة الناس.. تفضّل.. تكلّم.

تكلّمتُ بصوت مرتجف:

ـ يا طويل العمر أنا هلال ولد عيسى النايف. منذ ثلاثين سنة قام أبي بتسليم أختي لتسجنوها وهي حتى اليوم سجينة.

ارتسمت الدهشة على وجهه:

ـ لا يقوم أب بفعل هذا إلّا إذا كانت ابنته...

ابتلع الكلمة فأكملتُ بخجل:

ـ نعم كانت (بغي) تأذّى أبي منها، حاول التخلّص منها بكلّ الطرق المعروفة آنذاك لكنّها لم تمت. وكان آخر الدواء: السجن.

هزّ رأسه دون أن ينظر إليّ مشفقًا أن يرى وجهي المُتعرّق من الخجل، عبث بقلمه ثم:

ـ والمطلوب؟ ـ واستدرك ـ هذا إذا كانت بعدها حيّة.

سريعًا أكّدتُ له:

ـ لم تزل حيّة. أنا ذهبت لمدير السجن وتأكّدت منه لكنّه قال إنّ الأمر بيدك. ولهذا جئت مُتمنّيًا أن تسلّموها لي.

طرق بقلمه على طاولة المكتب ونظر إليّ نظرة أسف:

ـ لكن الذي يجب أن يستلمها هو أبوك.

ـ طال عمرك أبوي مات وشهادة الوفاة مُرفقة مع الأوراق. أنا الآن وليّ أمرها.

وضع أصابعه الثلاث على خدّه وبصوت أحسسته حزينًا:

ـ مسكينة أختك.. أظنّها شاخت.

غلبتني دموعي:

ـ ثلاثون سنة يا طويل العمر... ثلاثون سنة أكيد أكلتْ شبابها.

صمتَ قليلاً حتى تأكّد أنّني ابتلعتُ دموعي وقال بصوت حنون:

ـ لا تتكدّر.. سأعطي الأمر لمدير السجن ليسلّمها لك.

شكرته بحرارة، خطوتُ لأخرج ثم عدت إليه بوجهٍ كئيب:

ـ يا طويل العمر.. ليش تسمحون للآباء أن يسجنوا بناتهم؟

عقد وجهه وكأنّني وجّهت له إهانة:

ـ نحن لا نسمح لهم، هم يُرغموننا على ذلك، إذا جاء أحدهم وقال سأذبح ابنتي أو تودعونها في السجن. هنا نضطرّ لإدخالها وبذلك نحن ندرأ جريمة القتل، البعض بعد مدّة يصفح ويستعيد ابنته والبعض...

مطّ إصبعه باتّجاهي وصوته لا يخلو من غضب:

ـ مثل أبوك. يتركها في السجن حتى تموت.

هززت رأسي ثم شكرته:

ـ كثّر الله خيركم. لقد حافظتم على حياتها.

وقف.. فأدركتُ أنّ المقابلة انتهت، مدّ يده فمددت يدي. بيده ربت على يدي ومُبتسمًا قال:

ـ مبروك.. من الآن أختك حرّة، اذهب واستلمها.

نثرتُ مزيدًا من كلمات الشكر وحلقي مكتظّ بالدموع.

خرجتُ...

حديقة من نور تُضيئني.. عصافير تحملني وتُحلّق في سماء تنبسط أقمارها ونجومها في عزّ الظهر. صدى أغنيات صفيّة يزفّها النسيم العليل إلى سمعي وتنسلّ إلى قلبي فتتأرجح فيه وتنثر ألحانها في كلّ شريان.

* * *

لقاء الأخت

(لم أتباطأ . . .

في اليوم التالي صحوتُ باكرًا، لا أريد للوقت أن يمتصّ أكثر من حرّيّة أختي. ارتديتُ ملابسي، وفرحي الذي تسلّلت إلى قماشته خيوط خشنة من الرهبة والقلق.

كيف سألقاها؟ وكيف سأرى تعاريج الزمن التي حرثت بجمالها القديم! رعشة تلازمني فلا أميّز إن كانت تحتضن فرحي أو مؤلمة تُنذر بما سأرى أختي عليه بعد هذا الغياب.

دخلتُ من الباب الحديدي الكبير. لم أنتظر أن يقودني الحارس. فقد عرفت طريقي وتوجّهت إلى غرفة الضابط، التي كنت قد دخلتها من قبل.

صافحته بكفّي المرتعشة. أشار إلى الكرسيّ:

ـ تفضّل. . اجلس وارتاح حتى نبلّغها بوجودك.

جلست أنتظر قدومها. . السكون يلتفّ حولي حزامًا من الشوك. . الكرسيّ الذي أجلس عليه هو الآخر كومة من الشوك. .

خفقات قلبي طبول لا تهدأ.. كم هي مُرّة لحظات الانتظار.. وأيّ انتظار! لو قارنته بانتظار السنوات الطويلة الماضية لوجدته أشدّ وأثقل. كنتُ في الماضي أنتظر مجهولاً لا أدري متى سيأتي، لكنّ انتظاري اليوم رغم صعوبته، سيُتوّجُ برؤية صفيّة. انتظار يرعبني ويفرحني في الوقت نفسه).

* * *

يتآكل على المقعد الشوكي، يُشعل سيجارة فتحترق دون أن تمسّ شفتيه، يُطفئها ويُشعل أخرى والنار تشتعل في كلّ جسده. وحده مع الصمت والرهبة والاحتمالات.

لماذا تأخّر حضور أخته؟ هل تُراها تنكر أنّ لها أخًا وترفض لقاءه؟ هل يمكن أن تكون نسيته؟ أم أنّ السنوات العلقميّة مسحت من ذاكرتها صورة وجهه واسمه؟ أم أنّها فرحت لحدّ الإغماء؟

(يا إلٰهي! هل أوقفتْ الفرحة قلبها فماتت قبل أن تراها العين في لحظة ميلادها الجديد؟).

اهتزّ جسده بقشعريرة عاصفة لكنّه تدارك أمره وطرد كلّ هواجسه وتصوّرها تغتسل وتستبدل ثيابها لتخرج إليه نظيفة مُعافاة من روائح السجن.

يترصّد الباب المغلق بوجع كبير، هواء دافئ يدلف من النافذة المُواربة، أصوات في الحوش تتناهى إليه مُتداخلة فلا يلتقط منها جملة مفيدة. هل هي أصوات السجينات بعدما هزّتهنّ لحظة وداعها كما تهزّه هو لحظة لقائها؟ يرتجف.. أنفاسه مضطربة، ولهاثه يكاد يجفّ.

(سأراك أخيرًا يا صفيّة.. سأرى وجهك الأسمر وعينيك اللتين مثل ساعة الربّان وجسدك الممشوق كغزالة البراري. كيف ستواجهين المفاجأة؟ هل ستصرخين وتهوين أمامي جثّة هامدة؟ أم ستفرحين وتنهمرين عليّ بحزنك وشوقك ودموعك؟).

قلق يستبدّ به... يضغط على أعصابه... يحسّ بكلّ أعضائه تنكمش وتتضاءل، وتريق أفكاره مزيدًا من الأسئلة المضطربة فتتمدّد كأذرع هزيلة تنعش بعض أمل يحتاجه في هذه اللحظات العصيبة.

* * *

سمع الخطوات تقترب... ضغط على الأرض بقدميه ليوقف ارتجافهما، أطفأ سيجارته ونفث آخر غيمة من الدخان بينما الغيوم تلوب في قلبه.

كانت خطوات الضابط الذي دخل مُبتسمًا:

ـ ستأتي الآن.

اضطرب بينما الضابط يدسّ سيجارة بين شفتيه ويشعلها. النار بداخله تشتعل وصوت الضابط يُؤجّجها:

ـ الكُبر شين.. والسجن يُثَوّل العقل.

(ماذا يقصد؟ هل يقصد أنّها جُنّتْ!).

أطلق سؤاله المرتبك:

ـ هل أصاب أختي مكروه؟

سريعًا نفض الضابط رماد سيجارته وهو يُصحّح جملته التي أدرك أنّها قاسية:

ـ أقصد أنّها انذهلت وارتبكت حين قلت لها إنّ شخصًا يريد مقابلتها، خافت أن تأتي وقالت: (هذا أكيد أبي يريد أن يقتلني).

ـ ألَمْ تخبرها أنّني أخوها هلال؟

ـ بصراحة لأ... لكنّني أكّدت لها أنّ الشخص ليس أباها فوافقت.

ازداد وجيف قلبه حين انفتح الباب، قفزت كلّ حواسّه وتأهّبت روحه للقاء.

دخلت امرأة مربوعة القامة. أدرك من زيّها أنّها عاملة في السجن. وضعت مفتاحًا طويلاً أمام الضابط، ألقت عليه نظرة سريعة وقالت بوجه كشر:

ـ هي قادمة الآن.

فرحٌ مثل جرس يوقظ كلّ الحنين النائم في قلبه، كفّاه تتثلّجان فيفركهما لتدفأا.. مسح على عينيه يزيل غبش الدموع ويجهّزهما لاستقبالها.

* * *

مثل غيمة سوداء تتعثّر خطاها ودلفتْ من الباب.

امرأة بدينة قصيرة القامة ترتدي عباءة كالحة وبوشية سميكة بدتْ للوهلة الأولى شخصًا لا يعرفه.

(أتلك هي أختي؟ أين امتداد قامتها الذي كنت أغار منه وأسأل أمّي مُحتجًّا:

ـ لماذا هي أطول منّي؟

فتقول:

ـ لأنّها أكبر منكَ.

لكن غيرتي منها تزداد وتدفعني أن أضغط على رأسها مُتصوّرًا أنّها سوف تقصر وأصير أطول منها).

أين طولها الآن؟. لا يرى إلّا جسدًا مُربّعًا. طبقات من الدمع الذي تكوّم في عينيه يحجب الرؤية وهي واقفة أمامه مثل قمر مكسور مُترهّل. رأسها محنيٌّ وتفاصيل وجهها محجوبة.

صوت الضابط وهو ينهض عن كرسيّه:

ـ هي ذي أمامك.

وظلّ واقفًا.

نزع نفسه من كرسيّ الشوك، حثّ قدميه أن تحملاه، اقترب بخطواتٍ متباطئة وهو غير مصدّق أنّ التي تقف قبالته هي أخته. مدّ ذراعه، وضع كفّه على كتفها وهمس دامعًا:

ـ صفيّة... صفيّة.

ارتعشت... سحبت نفسها بخطوة ثقيلة إلى الوراء وتساءلت بصوت مبرودٍ يتلكّأ بسؤالها إلى الضابط:

ـ من هذا؟

التفت إلى الضابط حانقًا ففهم سرّ النظرة واعتذر:

ـ أردتُ أن تُفاجئها بنفسك لتفرح.

شحن نفسه بشجاعة مهزوزة. اقترب منها ثانية:

ـ صفيّة.. ارفعي البوشية وستعرفينني.

مدّت كفًّا تشقّق جلدها، رفعت الستار الأسود وحدّقت بوجهه.

عاصفة سوداء انحشرت في عينيه. أحسّ أنّ بئرًا عميقة تفتح فوّهتها وتشفطه إلى القعر فتقذفه ضربة من الجوف تعيده بالقوّة نفسها إلى الحافّة ليواجه الوجه الذي رآه.

(هل هذا وجه أختي؟ وجهٌ مُربدٌ بوجنات منتفخة تسكنها الصفرة، التجاعيد تعربشت من حول ثغرها إلى أسفل عينيها اللتين بدتا مثل محارتين قديمتين تعشّبت فيهما الطحالب والديدان. أين عيناها اللتين كانتا مثل نجمتين بارقتين، مثل بحر تسبح فيه سفن العائدين مُحمّلين بالهدايا؟ جفون مُترهّلة، رموش شائبة وشفتان جافّتان بلون الرماد).

* * *

هذا الذي يراه وجه غريب لا يشبه وجه أخته. كلّ شيء فيه لم يعد كما كان. حتى الشامة التي كانت كحبّة القهوة المحروقة تُزيّن خدّها الأيمن تمدّدت وصارت كالنتوء الفاجر.

حدّقتْ به أكثر، ارتجف ثغرها وانفرج عن أسنان هرمة تكاد تسقط أمامه ضرسًا ضرسًا.

تحيّرَ النطق في فمه وتمالكت هي شجاعتها وصوتها المندهش:

ـ هلال! أخوي هلال بعد كلّ هذا العمر؟

مادت بها الأرض، كادت تهوي لولا أنّه أسرع واحتضنها بذراعيه. أجلسها على الكرسيّ. كانت تفوح منها رائحة علف قديم. جلس بقربها فأسقطت رأسها على صدره وكانت رعشتها أشبه برقرقة ماء تأتي من ضلوعها:

ـ هلال.. يا بعد عيني.

تعانقا... تلاحما.. واحدهما يشدّ على الآخر ونشيجهما العالي يغمر سكون الغرفة. تهتف باسمه.. يهتف باسمها.. ويواصلان النشيج وجسداهما يختضّان خضّات من لامسه خيط كهربائي.. الضابط يشاهد المنظر ولم تخلُ مقلتاه من دموع تخجل أن تنهمر.

رفع وجهها إليه وأغمض عينيه يستعيد ذلك الوجه الجميل وفي داخله يعصف الوجع:

(آآه لو أصير الآن أمّها.. أعيدها إلى رحمي وألِدُها من جديد وأعوّضها زمن اليُتم والوحشة).

صوتها ثانية مطرًا يهطل في أذنيه:

ـ هلال.. ما أصدّق.

ضغط عليها ليؤكّد لها أنّ حضوره حقيقة وليس حلمًا. شدّها أكثر ليحميها من لحظة فرحها. شعر بخفقات قلبها المتسارعة تكاد تشقّ صدرها وتقتحم قلبه.

ناشقة بدمعها سألته:

ـ هلال.. كيف عرفتني بعد كلّ هذا العمر؟

خرج السؤال من ثغر تفوح منه رائحة حنين متراكم، أنعشته الرائحة:

ـ لم أنسكِ يا صفيّة فكيف لا أعرفك؟

هرسها إلى ضلوعه.. عضّ شفتيه خشية أن تصدر عنهما صرخة تلعن أباه الذي مسخها بهذا الشكل.

صوتها كثرثرة نبع على وشك الضمور:

ـ أخيرًا تتذكّرني وتجيء.

ـ جئت لآخذك إلى الدنيا. أنت اليوم تولدين صفيّة وصافية.

ـ هل يدري أبوك؟

لم تقل له (أبي).. وكأنّها اتّخذت قرارها ألّا يكون لها أب.

تعكّر وجهها وأكملت:

ـ هو الذي أرسلك لتأخذني، ماذا يريد منّي؟

ـ أنا الذي أريدك يا صفيّة.. أبوك...

تردّد ثم نطق وهو يدرك أنّه لن يفجعها:

ـ أبوك أعطاكِ عمره.

لم تشهق.. لم تضطرب.. لم يفُض من وجهها أيّ تعبير. سحبت آهة طويلة أغمضت عينيها.. ابتسمت وهمست:

(الحمد لله).

مدّت يديها إليه.. أدرك أنّها لا تمتلك قوّة لتنهض، رفعها عن الكرسيّ، أحسّها ثقيلة وباردة، وقبل أن يتحرّك بها سألها:

ـ هل أحضرتِ أشياءك معك؟

تنهّدت بحسرتها:

ـ ما عندي شيء آخذه سوى هذه ـ وأمسكت بطرف عباءتها ـ ثم أفسحت عن صدرها وأشارت لقلادة تُطوّق عنقها: وهذه.. هل تذكرها؟

ـ قلادة الحجّ التي أحضرتها لك أمّي من مكّة.

ـ وأنتَ.. أعطتك مسبحة طويلة لكنّك عبثت بها فتناثر خرزها في الحوش.

قفزت أصابعه المرتعشة نحو القلادة. داعبها وهو يتأمّل عنقها الذي بدا وكأنّه وسادة مبعوجة. أمواج من الشحم واحدة تندلق فوق الأخرى يفصلهما سوادٌ خشن (كالحكّوكة)[1] تأثّر في سرّه:

(كم أنت ظالم يا أبي.. أهكذا فعلت بعنق أختي الذي كان ناعمًا كعنق غزالة).

لم تكن العباءة والقلادة كلّ ما لديها، كانت غترة حسين مدفونة تحت إبطها يحرسها شحم زندها السمين.

قبل أن يخرج استوقفه الضابط:

ـ لو سمحت.. أريد أن توقّع على أوراق الاستلام.

استطاع أن ينتزع ضحكة وهو يقول:

---

(١) الحكوكة: ما يبقى مُحترقًا من الطعام في قعر القِدر.

ـ آسف.. فرحتي بسلامة أختي (دودهتني).

بادله الضابط الضحكة وهو يقدّم له الأوراق والقلم:

ـ الله يلوم اللي يلومك، ثلاثين سنة مو شويّة.

* * *

تأبّط شقيقة روحه.. يخشى أن تزلّ قدمها.. الفرح يقفز من قلبه إلى خطواته وينتقل إليها حارًّا. وصلا إلى الباب، أشرعه الحارس وابتسامته مُنفرجة حتى شدقيه، هو الآخر سجين هذا المكان، يستقبل الداخل (المفقود) ويودّع الخارج (المولود) ويحرس البوّابة ليل نهار ولا غرابة أن يبتسم هذه الابتسامة لكلّ من يغادره.

أدخلَ عيسى كفّه في جيب دشداشته وأخرج عشرة دنانير نقدها للحارس الذي تدفّقت كلمات الشكر من فمه كتدفّق الماء.

خرجا...

وصفق الحارس الباب بهدوء.

توقّفتْ صفيّة عن المشي.. حسبها نسيت شيئًا، لكنّه فوجئ بها تنحني وتلتقط حجرًا كبيرًا لتقذفه بكلّ قوّتها على الباب الذي انصفق خلفهما ثم أتبعته ببصقةٍ كبيرة سقطت عليه كذرق الحمام.

سارت بجانبه، كأنّها لم تمش كلّ تلك السنوات. يسمع وقع خطواتها غير المُتباطئة تدكّ الأرض لتتأكّد أنها صلبة غير قابلة للزلزلة والانهيار تحت قدميها. وحين وصلت إلى السيّارة وقفت أمامها مبهورة تداعب بكفّها سطحها الأملس.

* * *

خذني إلى البحر

فتحتُ لها الباب. هبطت بجسدها الثقيل على المقعد. انتشرت في السيّارة رائحة علفها التي تشبه رائحة بيض فاسد. أشفقت عليها من رائحتها المشحونة برائحة وجعها، كدتُ أختنق ففتحتُ نافذة السيّارة وأطفأت التكييف مُحتملاً حرارة الجوّ الأرحم من رائحتها.

أحسستها مرتاحة، سألتني:

ـ هذي سيّارتك؟

أومأتُ برأسي وأنا أبتسم وجاء صوتها فرحًا:

ـ الحمد لله صرتَ رجلاً وتقود سيّارة. هل تذكر أحلامك القديمة؟

ـ كنتُ أحلم بسيّارة.

أكملتْ:

ـ وبزوجة وأولاد يركبونها. هل تزوّجت؟

ـ وعندي ابنتان، ثاجبة وصفيّة.

اندفعت إلى كفّي تقبّله وقد غلبها نشيجها. مطّت تنهيدة حارّة وقالت:

ـ مسكينة أمّي كانت تتمنّى أن تشوف عيالك.

ـ ماتت محسورة عليك وتمنّت أن تراك.

ـ وحده أبوك كان يأتي كلّ شهر، ليس شوقًا ولا حبًّا، يأخذونني إلى الحوش لأقف قريبة من نافذة غرفة الضابط كيّ يطمئنّ أنّني ما زلت موجودة. كنت أطلب منه أن أراكَ وأرى أمّي وكان يرفض ويقول لي بكلّ جبروته: (لو تموتين ما تشوفينهم طول ما أنا عايش).

وفي إحدى زياراته وبلا رحمة تسبقها كلمات تُهوّن عليّ الأمر قال وهو يبتسم:

(لا تطلبين أن تشوفي أمّك لأنّها ماتت).

فجعني... صرتُ أصرخ وأشتمه بكلّ ما جاد به لساني من سُباب، وأدعي عليه أن يموت. حاولتُ أن أركض وأدخل غرفة الضابط لأمسك بعنقه وأخنقه لكنّ الحارسات أمسكن بي فلم أجد غير سائل فمي الذي جمعته وقذفت بصقتي التي لم تبلغه.

(ليتني كنت أعلم ببصقتها الضائعة لكنتُ أوصلتها إليه وهم يكفّنونه).

* * *

مبهورة كانت تتأمّل طرقات لا تعرفها، حائرة، مشحونة بالأسئلة وكأنّها تدخل مدينة غريبة لا تربطها بها رابطة. حين اكتظّ فؤادها بحيرته بدأت تسأل:

ـ هذي الكويت؟

ضحكتُ:

ـ نعم الكويت.

غير مُصدّقة:

ـ لأ... لأ... ما أصدّق. كلّ شيء تغيّر، وين بيتنا القديم؟

ـ تغيّر هو الآخر ثمّنوه وحصلنا على مبلغ كبير اشترينا به بيتًا جديدًا.

ـ في شرق؟

ـ لأ.. في منطقة واو، وألحين يسمّونها الدسمة.

ـ يعني صرنا خارج السور؟

ـ السور هدموه.

شهقت وهي تلطم صدرها:

ـ ليش؟ لقد تعبوا لمّا بنوه.

ـ ضاقت الديرة وكثر الناس وجاء كثيرون من الخارج.

ـ وليش جابوهم؟

ـ احتاجت الديرة إلى أيدٍ وعقول.

ـ عساها بس ليست كعقل أبيك اليابس؟

مددتُ كفّي. حرستُ كفّها المرتاحة على المقعد.

ـ العقول تغيّرت.. والناس تعلّمت.

ـ آآه.. عُمْرْ.

ـ طويل.

ـ أضاعه منّي أبوك وقلعني من الدنيا.

حرّكتْ شغاف قلبي فأكّدت لها:

ـ الدنيا أمامك الآن واسعة.

فاجأتني حانقة:

ـ ليش طلّعتني من السجن؟ هذه دنيا لا أعرفها.

أزعجني يأسها. تحاملتُ لأخفي انزعاجي:

ـ يا صفيّة يكفيك ما عانيت من السجن، الآن لازم تعيشين عمركِ.

تفجّر بركان صمتها.. التهبت أرضها الجافّة، انخرطتْ في بكاء يسكبُ في روحي المرارة وانغرزت شهقاتها في صدري انغراس السهم في جسد الضحيّة. قالت بصوت مبحوح وآسف:

ـ أيّ عمر..؟ وكم بقي لي منه؟

شلّ أساها لساني. تذكّرتُ أبي وحقدتُ عليه. مددتُ كفّي ثانية، حضنتُ كفّها فأحسستها مثل جلد الدبّ الميّت قلت:

ـ انسي الماضي يا صفيّة.

أصدرت آهة طويلة وسألت:

ـ أين ستأخذني؟

ـ إلى بيتي، سترين زوجتي وبناتي.

توسّلت وفي صوتها حقول من العشب الجافّ:

ـ لا يا هلال.. الله يخلّيك، قبل بيتك خُذني إلى البحر.

* * *

البحر... البحر...

رنّة الشوق تفيض من حنجرتها، تريد لقاء الأزرق الذي كانت تحبّه، وتشتاق عُمقه الدافئ. هل تهفو روحها للسباحة أم تودّ الاغتسال من وسخ السجن النابت على جسدها كما الطين؟

ـ خُذني إلى البحر.

كرّرت طلبها، ترنيمة مُشبعة باللهفة والوجد. هل تحتاجه ليُزيل حشوفة الماضي وظلمته؟ أم تراها!...

هزّني الخاطر.

ماذا لو كانت تريد أن تعطيه عمرها؟ هل تفكّر أن...

لا.. لا أصدّق.. كلّ هذا الشوق ليس نداءً للموت. بل هو نداء حياة.

ـ ألم تسمعني؟ خذني إلى البحر.

أهي رغبة جوعها للبحر أم هو الأمر الذي عليّ أن أنفّذه؟

لن أقتل رغبتها الأولى وقد نذرتُ أن أكون طوعها ورهن إشارتها.

إصرار يغلب على صوتها ورأسي يومئ لها أن ـ حاضر.

لويتُ عنق السيّارة.. ودون انتباه تخطّيت إشارة المرور، السيّارة تطير كعصفور تلاحقه بنادق ألف صيّاد. فيطير إلى البحر بدل السماء.

على الرمل قريبا جدًّا من الشاطئ... أوقفتُ السيّارة.

شهقت شهقة كالصرخة.. انفلت نشيجها.. عزفُ نايات حزينة وطبول ثائرة، كانت نشقاتها تؤلمني ودموعها تُغرق قلبي بسيولها.

انتظرتُ حتى هدأت.. وفتحتُ لها باب السيّارة.

مثل سدٍّ محبوس ما إن تهاوت من حوله الحواجز حتى اندلق كالطوفان.

* * *

كان البحر مائجًا مُستعدًّا لاقتطاف حنينها الأوّل، وسرّ أسرارها ليحفظه في عُمقه. السماء تدثّره بزرقتها والنوارس البيضاء ترقص في فضائه ثم تغطس مناقيرها لتعبّ الماء أو تلتقط سمكة شاردة. الأمواج ترتطم بالصخور وتتطاير أكاليل الزّبَدِ في الهواء كرذاذاتِ حليب طازج.

ها هو البحر... يبسط لها سجّادته الزرقاء ويدعوها أن تهرع إليه بجسدها وعاطفتها. حذفت نعليها، ألقت بعباءتها، الجسد الثقيل صار ريشة عامرة بالضياء. صارت مُهرة اتّسعت لها البراري واتّسع البحر.

ركضتُ إليه..

ركضتُ وراءها قبل أن ترتمي فيه. أناديها ولا تسمع وكأنّي بها تعود صفيّة الطفلة النزقة وأعود هلال الطفل الذي كان يُلاحقها ليسابقها. كانت تلتمع أمامي مثل بلّورة والرمل يصهل تحت قدميها المُفلطحتين المُتقشّفتين.

شدّت ملفع رأسها وليتها لم تفعل. كنت أتصوّر أنّني سأرى شعرها الطويل بلونه الليليّ الساحر. لكنّني لم أرَ غير خصلات خفيفة شائبة مُشعّثة مثل قطن قديم. (آه يا صفيّة.. ماذا فعل بكِ الزمن! وكم ستبقى سنواته المرتحلة تلازمكِ؟ ولن تستطيعي جرف مُخلّفاته الثقيلة).

هي لحظتها المُشرقة... فرحها الأوّل يأتي بعد الغفلة ولن تتركه يفلت منها دون أن تغتنمه.

ركعتْ.. أخذت تهيل الرمل على رأسها وتصرخ وكأنّها أمٌّ ثُكِلت بوليدها، استلقت على ظهرها وبدأت تُدحرج جسدها نحو البحر. حين شارفت عليه استقامت بطولها واندفعت إلى الماء فاتحة ذراعيها وكأنّ الذي أمامها عاشق ينتظرها.

شدّتها الموجات بحنان فانسابت معها بينما جلستُ أنا على

الشاطئ أحرسها وأراقب تجلّياتها في الماء. تغطسُ وتشرئبّ برأسها نحو السماء. وكلّما انغمستْ فيه شعرتُ بأنّ البحر يفيض.. ويفيض.. حتى ليكاد يُغرق المدينة.

تدور.. وتدور.. تُخاصر البحر ويخاصرها، تمتطي الموج وكأنّه صهوة جواد شهم في ذروة الشهوة، يحمل لي الهواء صرخاتها كركراتٍ ونواحًا وغناء. أحُسّ البحر يشرب دموعها الأكثر ملوحة من ملحه والأثقل وزنًا من صخوره.

* * *

هي في البحر الذي يحتفي بها ويكشط آثامها مثل صَدَفَةٍ تغتسل وتتطهّر وتُزيل شوائب السجن وتنعش أحلامها المهدورة.

البحر طيّعٌ لها.. تلوطه ويلوطها في رقصة جنونيّة. يتناثر الزّبدُ وتركض إليه تجمعه بين يديها، تُمشّطه، تجدّله، ثم تفكّ جدائله وترشّ ظمأها عليه وكأنّه جسد رجل محروم تداعبه ويداعبها. هي امرأة السنين العجاف تُفجّر رغباتها وتُفرغ نشواتها. تعلو وتصرخ.. تغطس في عمقه. ولم يكد قلبي يرتجف خوفًا عليها حتى يبزغ رأسها ثم جسدها فأتنفّس الراحة وأنشرح لنجاتها.

أقبلتْ إلى الشاطئ مُبلّلة.. يلتصق ثوبها بجسدها المُترهّل. زوائدها تتدلّى فوق خصر عريض وبطن يتكوّر مثل عجينة رخوة. خصلات شعرها الشائب تسترسل رفيعة كأذناب الفئران. الماء يتقاطر منها وشفتاها منفرجتان تكشفان عن أسنانها الدكناء الثرمة. ترتعش بردًا.. فرحًا.. وتفوح منها رائحة البحر وقد فارقتها نتانة السجن التي خرجتْ بها.

أسرعتُ إليها أدثّرها بعباءتها:

ـ أخاف أن تمرضي.

صوتها المُنتشي بملح البحر كالهتاف:

ـ لا تخف، جسدي صلب.

في داخلي:

(أشهد أنّه صلب، هذا الجسد الذي ذاق أعنف العقابات ولم يمرض، ظلّ سجينًا أربعين يومًا وقاومت صلابته الجوع والعطش، حتى سقوطها من السطح لم يقض عليها. أيّ صلابة تملكها أختي؟!).

أجلستها على الرمل الرطب وجاورتها وما زال الماضي يتراءى أمامي. أيقظتني بسؤالها:

ـ هلال.. هل تشوفني ضعيفة ولا أصلح للحياة؟

نفيتُ بشدّة:

ـ أبدًا يا صفيّة.. أنت قويّة، يكفي أنّكِ قاومت السجن والموت.

قالت بصوت كالهمس حزينًا:

ـ وقاومت ما هو أصعب.

أدركتُ أنّ الأصعب الذي تعنيه وعانت منه هو رغبات جسدها التي لا تستطيع أن تُفصح عنها خجلاً منّي!

حاولت أن أمازحها:

ـ أنت مثل القطّة بسبعة أرواح كما كان أبونا يقول.

ـ حتى القطط تموت، أنا مثل هذا...

أشارت إلى البحر وهي تنظر له باعتزاز:

ـ صدقني يا هلال، أنا مثل هذا البحر. اليوم غسلني، وهامسني وهو يوصيني أن أصير مثله قويّة لا أحزن ولا أيأس.

فرحتُ بهذه البادرة منها ولم أستغرب.

(هي صفيّة كما أعرفها).

لا أدري كيف جنحتْ بي ذاكرتي إلى الماضي، استعرضتُ صُوَرُ طفولتها، شقاوتها، دلعها، عنادها، حنانها، جمالها، وعذوبة صوتها. لكن مشاهد تعذيب أبي لها بكلّ قسوته ورغبته في كلّ مرّة أن تموت، كانت تطغى على كلّ الصُوَرْ. كيف احتملت كلّ هذا وقاومته لتعيش؟ هل كان شعورها منذ طفولتها بأنّها كالبحر!

كنتُ قد سرحتُ بأفكاري بعيدًا عنها. حين تنبّهتُ استدرتُ إليها، كانت ترفع رأسها، وبصرها مُتوجّه إلى السماء ودموعها سائلة كحبّاتِ مطر، حسبتها تطلب المغفرة، انشرح صدري وبادرتها:

ـ لا تقلقي يا صفيّة. ستغفر لك السماء.

أثلجتني بردّها العنيف:

ـ لا أطلب المغفرة.. لو كانت السماء رحومة لسمعتْ نداءاتي وأنا في محنتي.

لم أرضَ لها أن تكون عاقّة لكنّني كنت أعذر روحها التي نالت من أوجاع الدنيا. لذتُ بصمتي وأظنّها فهمت أنّني مستاءٌ من كلامها. تنحنحتْ بصوت معاند لصمتي فنظرتُ إليها وقبل أن أنبس، بادرتني وهي تشير ناحية السماء:

ـ شوف يا هلال كم السماء بعيدة، لا يهمّها ما يحدث للبشر.

ـ السماء رحومة. البشر هم من ينتزعون الرحمة من قلوبهم. هم من آذوك وليست السماء.

بصوت مليء بالإصرار والعناد:

ـ رغم ذلك لن أستغفر.. ولن أغفر.

ظلّت تُثرثر بكلماتٍ لم أفهم لها معنى ثم انخرطت في بكاء شديد وهي تحرث بالرمل، اقتربتُ منها ربتّ على ظهرها، رفعتُ وجهها المُبلّل بالرمل وبالدموع:

ـ لا تبكي يا صفيّة. بكاؤك يعذّبني.

ارتمتْ على صدري المُنهك شدّت عليّ بذراعين قويّين رغم أنّها كانت ترتجف كسعفة خريف. وبدوري شددتُ عليها فاستسلمتْ لحناني وقالت بصوت حزين:

ـ سامحني يا هلال عذّبتكَ معي.

ـ عذابي لا يساوي ذرّة من عذاب سنواتك.

رفعتها وشعرتُ بها خفيفة وكأنّ البحر أذاب كلّ ملح جراحها الثقيلة.

قبل أن تدخل إلى السيّارة خلعت عباءتها وأخذت تهزّ جسدها. كانت مثل إسفنجة امتصّتْ الماء وتريد إفراغه. وحين تخلّصت منه أخذت تنفض عباءتها من الرمل.

ران الصمت بيننا.. فعدتُ لا أسمع غير أنفاسها المُتلاحقة وتمتمات شفتيها الخفيضة. تردّدتُ قبل أن ألقي عليها السؤال:

ـ صفيّة... هل ظلمك أبي؟

أجابت بصوت خجول:

ـ ظلمني جسدي.

جرُؤتُ وسألتها:

ـ هل تندمين الآن يا صفيّة؟

غَضِبَ صوتها:

ـ ليش أندم؟ لن أستحي منك، لقد أمتعتُ جسدي واستمتعتُ. ولستُ بنادمة.

صمتتْ.

رغم جرأتها التي فاجأتني شعرتُ بها تثير إعجابي:

(عجيبة هي صفيّة.. لا تندم، ولا يبدو أنّها تكره جسدها أو تتبرّأ منه رغم كلّ الذي سبّبه لها من عذابات).

حين لم أجب حسبتني غضبتُ منها، قالت لتبرّر:

ـ شوف يا هلال.. أنا ما كنت أقدر أن أتوب أو أصبر.

لم أخجل أن أذكّرها:

ـ وكيف صبرتِ ثلاثين سنة وأنت في السجن؟

استلّتْ تنهيدة حارّة:

ـ آآآه يا أخي... للسجن حكاية أخرى فظيعة قد أحكيها لك ذات يوم.

* * *

ديسمبر ٢٠١٢